قواعد الجنون الأربعون

في الفلسفة،
وعلم النفس المعرفي

مهند سنبل





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

قواعد الجنون
الأربعون
في الفلسفة،
وعلم النفس المعرفي

قواعد الجنون
الأربعون
في الفلسفة،
وعلم النفس المعرفي

مهند سنبل



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: تموز/يوليو 2019 م - 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3715-5

تــوزيـــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)
ص.ب: 13–5574 شوران – بيروت 2050–1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1–961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبـجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحْتويَات

«وحيثُ رحلتَ الهوى راحِلٌ..
وحيثُ أقمتَ أقام معَك
ومهما وعظتَ الفؤادَ المحبَ..
فلن يستجيبَ ولن يسمعَكْ».

زين عبد الله بن بيه

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن كل سعادة بعدها شقاء وكل شقاء بعده سعادة وإن أصل هذا الكتاب خواطر فلسفية مبعثرة كتبتها على وسائل التواصل الاجتماعي ثم حذفتها جميعاً وكتبت هذا الكتاب من الذاكرة وبنوع من الاتساق تحت عنوان: «قواعد الجنون الأربعون». وقد استغرقت كتابته من أول تدوينه إلى النهاية - وعلى الرغم من صغر حجمه - ما يزيد عن العشر سنين. وطريقتي في الكتابة كانت غريبة بعض الشيء بحيث إنني غالباً ما أكتب من بنات أفكاري أو من فكرة بسيطة مستوحاه من عمل فني أو مقال، ثم بعد ذلك أطلع وأتبحر في الموضوع، ثم أعدل وأضيف على الكتابة. بحيث أكتب في فصل عن السياسة بفهمي البسيط لها ثم أطلع على قواعدها بنوع من التعمق وأؤصل كلامي. وأكتب عن الفلسفة من فلسفتي البسيطة ثم أطلع على المدارس الفلسفية وأعدل كلامي وهكذا. وستلاحظ أيضاً عزيزي القارئ أن أغلب فصول هذا الكتاب غاية في الصغر، والأولى أن تسمى أوراقاً أو نقاطاً أو ما شابه ولكني أبقيت على كلمة فصل مجازاً.

لقد كنت أتفلسف كثيراً في تدويناتي على الإنترنت وكان أغلبها من النوع العميق من شدة بساطته والمضحك أحياناً، حتى أني طرحت سؤالاً ذات مرة وهو هل تعتقد أنه وعلى الأقل صرصوراً واحداً قد فكّر: لِمَ أنا هنا؟ وما الهدف من هذه الحياة؟ ومرة سألت عن الفيروس في بطن إبليس هل يعتبر خبيثاً أم حميداً؟ وإذا ما كنت أمثل أني أمثل، فهل أنا صادق أم أمثل؟ وكان الكثير من الأصدقاء يتساءلون عن الكيفية التي يتوصل بها عقلي لمثل هذه الفلسفة؟ وكان آخرون يتساءلون عن نوع المخدر الذي أتعاطاه؟ ولم أكن حينها حقيقةً أتعاطى أي مخدر ولكني كثيراً ما كنت أسأل نفسي هذا السؤال، لِمَ أنت مختلف عن السواد الأعظم من الناس؟! لِمَ لا تعمل في وظيفة مرموقة

وتجامل مديرك وتسافر في الصيف إلى باريس مع الأهل والأصدقاء؟ ولِمَ كل هذا العمق والتأمل والذي قد يكون زائداً نوعاً ما؟

الجواب هو أن هناك طبع دروشة في شخصيتي بحيث إني لا أُؤمن بالصراع والتنافس البتة بل وعلى العكس فإني كنت دائماً ما أضع نفسي مكان الآخر، وهذا الأمر فتح لي بركات من السماء بالإضافة لقوة تحليلية وفلسفية كبيرة. ثم إني طُبعت على المبالغة وأميل إليها وأتعمق بها ولو نظرت إلى أغلب كتاباتي فستجدها نوعا من المبالغة الفلسفية وتبادلاً للأدوار لا أقل ولا أكثر، وأن المبالغة (وكما سيرد في الفصل الثالث) هي أحد أساليب التحليل المنطقي. أو أنه ولربما هناك جنون وتغير في كيمياء الدماغ أو طفرة في جزء الإبداع أو الترتيب أو شيء من هذا القبيل في عقلي مما أدى إلى اختلاف في التفكير وعمق في الفلسفة، وبعض الطفرات في الدماغ قد تكون حميده. أو أن التربية والمجتمع والعوامل الخارجية كانت متطرفة - وكلمة متطرف يقصد بها سواء سلباً أو إيجاباً - فنشأ عنها فلسفة متطرفة، أم إني لست إلا كرجل أعمى يملك حدس منير.

إن محور هذا الكتاب وأغلب فصوله هو مصارحة وطرح نقاط وأفكار يراها عامة الناس ضرباً من الجنون بينما في الواقع لها أصول فيزيائية علمية وأدبية اجتماعية حقيقية: كنسبية كل شيء وكالمهدوية والتشفير، ثم شرحها والتأكيد عليها أو تخفيفها وحلها أو نفيها لا تعسفاً بل بالمنطق. وهناك فصول أخرى تتحدث عن ما قد يكون سبباً في الجنون كالمخدرات والتعرض للتحرش عندما يكون الشخص طفلاً وغيره. وهناك فصول أخرى تتحدث عن أشياء عادية معروفة كالرأسمالية والمواطنة والعلمانية والأسرة ولكن بنوع من الجنون. وتتحدث فصول أخرى عن صلب موضوع الجنون كعلم النفس والهلاوس.

يتخلل الكتاب بعض الأفكار والنصائح والفلسفة ثم لَك عزيزي القارئ الحكم إن كان الكلام مجرد سفسطة وإن كان كذلك فهل هي سفسطة مسلية أم العكس. لعل من به جنون يفيق لأن سالب السالب موجب وتجنين المجنون قد يشفيه، ولعل من به بلادة يمسه شيء من التساؤل والتفكير ومن أخوه مجنون تفهمه وربما ساعده، ولعل المثقف يزيد ويؤكد على ثقافته. وكما قيل في الأمثال إن كنت تخاف من الماء فاذهب إلى البحر، ثم لا تخفِ وساوسك فيضيق صدرك وتضع قناع الرضى على وجهك بينما أنت من الداخل تحترق، أخرجها فنحن نتشارك الألم.

إذاً وبعبارة أخرى علمية وأدق فإن الهدف من هذا الكتاب هو العلاج الإدراكي المعرفي لحالات الفصام الخفيف أو شبه الفصام وأي من المشاكل النفسية التي تتعلق بالأوهام والانفصال عن الواقع. وأن العلاج المعرفي الوارد في الكتاب فلسفي لطيف أكثر مما هو علمي دقيق. ففي الوقت نفسه الكتاب عام وبه أمور يعتقد الكاتب أنها شيقة للكل ويحسن قراءتها، ومن منا لا يعاني في هذا الزمن من أوهام؟ ولكن كلاً منا يخفي جنونه.

إن فصول الكتاب وإن بدت عناوينها مختلفة إلا أن أفكارها تتشابه وتتكرر وتنسجم بعضها مع بعض لأن كافة العلوم متشابهة ومتداخلة كما سيرد في الفصل الثاني، ومزج العلوم هو مفتاح الكتاب. وكذلك ستجد عزيزي القارئ تحت أغلب الفصول مراجع تخص الفصل للاستفاضة، ولكنها تعد أيضاً مراجع عامة لكل الكتاب.

أخيراً وحتى لا أطيل المقدمة، فإننا نعيش في عالم مجنون، انظر إلى كل هذه الحروب والقتل والجشع والاستعلاء والفقر وقطع الأرحام والتكبر والاستعباد. والمجنون اليوم قد يكون هو العاقل الوحيد، أقتبس للسيد إريك فروم «الإنسان المتكيف مع مجتمع مريض هو إنسان مريض».

الفصل الأول

إذا جنّنت المجنون فسيصبح عاقلاً

المجانين مبدعون وذلك بسبب انفصالهم عن الواقع فعامة الناس يعيشون في قيود اجتماعية وقيود من العادات والأعراف أما المجانين فهم يفكرون كما قيل خارج الصندوق (Thinking out of the box) أو كمن عاش على الأرض مع الناس طوال عمره فظن أنها مسطحة وأما من خرج للفضاء فسيرى ويتأكد أنها كروية (شبه كروية على وجه الدقة). ولكن الطريقة التي سيشرح بها للآخرين ممن لم يغادروا الأرض بأنها كروية هي التي ستحدد عبقريته من جنونه.

عاش العباقرة في بيئة ومجتمع متفهم من حسن حظهم وهم أنفسهم استطاعوا التأقلم مع المجتمع نوعاً ما باجتهادهم وصبرهم، ولكن المجانين رُفضوا من المجتمع فزادهم ذلك جنوناً. كما أن أشهر العلماء تعرضوا لمتاعب في بداياتهم ومنهم من طُرِد من المدرسة أو الجامعة بسبب الضعف الدراسي وتشتت الانتباه، والحقيقة إن عقولهم أسرع وأكبر من الطبيعي. كمن يلقي محاضرة عن نظرية الكم في قرية من الأميين فسيوصف لا محال بالهذيان والجنون، وإن كانت نظرية الكم بحد ذاتها ضرباً من الجنون. والعباقرة بشكل عام وإن لم يكن كلهم فأغلبهم شارد الذهن وبه «لحسة خفيفة» كما يقال.

وكما قيل أيضاً فإن الفرق بين العبقرية والجنون شعرة كما أنه أحياناً قمة الشيء قاعه وقاع الشيء قمته. فالحياء الزائد مسخرة، والكرم الزائد طمع في مدح الناس، والأدب الزائد وقاحة. فالذكاء الزائد غباء والغباء الزائد أحياناً ذكاء وراحة بال، فيما عدا الخبث فإن زيادة الخبث خبث، كبئر مظلمة سحيقة دون قاع.

تاريخيا وباختصار كان ينظر للمجنون في العالم الغربي باحتقار ويتم عزله وتعذيبه وسجنه، كنوع من الترهيب والتخويف الاجتماعي ضد الانحلال الأخلاقي ومعارضة الكنيسة. بينما في الجانب الآخر كان العالم العربي والإسلامي يُقدر المجانين وبنوا لهم مراكز للنقاهة والصحة بل وكان الانطباع العام يعتبر أنهم أناس متواصلين مع الله. وأحبوهم مالم يؤذوا أحد وحتى لو نطقوا بالكفر، وصاغوا المصطلح المشهور درويش.

اليوم ينظر للمجنون كشخص يعاني من تشتت بالأفكار وعدم اتصال بالواقع وأنه من الممكن علاجه أو تحسين حالته. بل إن نظريات علم النفس الحديثة تشير أنه لا يصح تقسيم الناس لمجنون أو مريض نفسي من جهة وشخص طبيعي أو صحيح من جهة أخرى فكل الناس في حالة الما بين، وعزل شخص معين ورميه بالمجنون يضاعف مشاكله. ليس هذا وحسب بل وجدت أن أغلب الأفكار المجنونة وحتى الوساوس والمتلازمات النفسية لها أصل علمي وأدبي كما ورد في المقدمة ولكن المشكلة أن بعض الأشخاص يركزون على فكرة معينة ويبالغون فيها ويجعلونها محور حياتهم فيصبح عندهم علة نفسية واضحة وجلية. إن المجنون أشبه ما يكون بذلك الرجل المعدم العجوز والذي يزورك كل مساء في دكانك ويقول: «إن الشمس قد لا تشرق غداً».

مراجع:

A Beautiful Mind - 2001.

One Flew Over the Cuckoo’s Nest - 1975.

Kay Redfield Jamison - An Unquiet Mind: A Memoir of Moods and Madness - 1995.

Michel Foucault - Folie et déraison: Histoire de la folie à l’âge classique - 1961.

Gnarls Barkley - Crazy.

الفصل الثاني

وحدة العلوم

إن كافة فروع العلم متشابهة ومتشابكة ومتداخلة وإن بدا غير ذلك في أول الأمر حتى تتأمل وتتبحر. على سبيل المثال ستجد نظريات من علم الأحياء تُطبَق في علم الاجتماع، ونظرية الكم لها تطبيقات في علم الأحياء، والموسيقى ليست إلا معادلات رياضية بحتة فبتهوفن أشهر موسيقي في العالم كان أصم لا يسمع في معظم حياته ولكنه كتب موسيقى رائعة. فتصنيف العلوم إذاً ليس حقيقياً ولكنه للتسهيل والفهرسة. ومِن العلماء مَن يقول بوحدة العلوم، إذ لا يجوز تقسيم العلوم إلى علوم إنسانيه وأخرى تجريبية، بل وأن نفس القوانين يجب أن تنطبق على كلٍ من الإنسان والكون والفيزياء والذرة والحيوان والنبات، وكل شيء. فعلى سبيل المثال هناك نظرية فيزيائية تنص على أن الكون يتجه من النظام الفائق منذ الانفجار الكبير إلى الفوضى، وهناك نظرية اجتماعية تنص على أن المجتمعات تتجه من الفوضى إلى النظام وهذا لا يصح. فالكون واحد وكافة الأمور والعلوم مرتبطة فإما أن هناك خطأ في النظرية الأولى أو الثانية، أو أن هناك علة وتفسير وجيه لسير المجتمعات عكس سير الكون، وأن هذه العلة يجب أن تشرح وأن تبين.

واللغة هي ما يربط العلوم، واللغة لها مفتاحان: الضمائر (إثباتها من إهمالها) والاقتباس. وأما التعريف اللغوي وإرجاع الكلمة لأصلها فهو أساس كل شرح. فعلى سبيل المثال كلمة شاع: شاع الشيءُ أي ظهر وانتشر وشاع بالشيء أي أذاعه والشعاع هو المتفرق المنتشر وهو ما يصدر من الشمس أو مصدر مشع في الفيزياء. والشعاع الرياضي هو خط مستقيم له نقطة بداية وليس له نقطة نهاية بينما الشيوعية هي مذهب سياسي يدعو لشيعان الحكم والموارد بين الناس وعدم حصرها بأقلية، والتشيع مذهب ديني يدعو للتجمع حول الإمام علي ليكون هو الشعاع المنير،

فالـمَلكية مجازاً تشيع والديموقراطية مجازاً شيوعية. بينما الكلمة في الإنجليزية تعطي جذوراً ومعاني مختلفة تماماً، لذلك وبالفعل إن تعلم لغة ثانية يفتح الآفاق.

إن علمي وعلمك مهما بلغ لا يساوي شيئا أمام علم الله لأن علم الله مطلق لانهائي، كما ورد عن قول الخضر لموسى عليهما السلام: علمي وعلمك كقطرة في بحر الله. ويمكن إثبات ذلك رياضياً إذ أي عدد مهما كبر إن قسمته على ما لا نهاية سيكون الناتج صفراً: ($x/\infty = 0$).

مراجع:

Mos Def - Mathematics.

الفصل الثالث
المنطق والمبالغة

إذا أردت أن تعرف فكرة هل هي صحيحة أم خاطئة فكبرها وانشرها لأبعد الحدود ولأقصى الجنون ثم انظر وتأمل. ثم صغرها وتفهها لأبعد الحدود وانظر، واجمعها واطرحها مع أفكار أخرى واعكسها فبالعكس تعرف الأشياء وهكذا. المثلية الجنسية على سبيل المثال لو كبرتها وعظمتها ودعوت لها، وجعلت جميع البشر مثليين فلن يكون هناك جيل جديد وولادة وستندثر البشرية خلال عدة أعوام. أما لو صغرتها وتفهتها فلا ينصح بها طبياً ولا داعي لها من الأصل، والأولى أن يحب الرجل امرأة ويعيش معها بدون أي تعقيد أو فلسفة. كذلك استخدام القوة والضغط فلو تفهت الموضوع فإن الدنيا لا تستحق أن تجرح أخاك ولو بنظرة وأن الحب يعطي نتائج أفضل من استعمال الضغط، وأما لو كبرت الموضوع بحيث إنك ستضغط في البدء على العامل الذي يعمل لديك ثم على أخيك ثم على كل من حولك، ثم تمد يدك ثم تقتل ويتوسع نفوذك وتسيطر بالقوة على مدينتك ثم العالم حتى تقتل الجميع إلا أحد أعز أصدقائك، ثم تقتله لخلاف بينكما فتبقى لوحدك في العالم وحيداً حتى تموت. وهذا التكبير قد يعطي معنى لمفهوم الشر ويحل إحدى أكبر المعضلات الفلسفية، فمن يسمون بالأشرار والذين يضغطون على الناس يريدون بكل بساطة إنهاء حياة العذاب التي نعيش بينما الطيبون يريدون انتشار المحبة والسلام واستمرارية الحياة.

وطبق القاعدة السابقة على أي شيء كاختيار مرشح رئاسي. ماذا لو فاز المرشح الفلاني؟ وماذا لو تمكن بالتمام من الحكم؟ وماذا سنفعل بدونه؟ وماذا سيفعل هو تحت إمرة مرشح آخر؟ وماذا سيفعل المرشح الآخر تحت إمرته؟ وما ستفعل المعارضة معه؟ وماذا لو حكم دون معارضة؟ وماذا لو تسيد المعارضة؟ وهكذا. ولكن المبالغة عندما تطبقها في حياتك الاجتماعية وفي التوصل

مع الناس غالباً ما تكون سلبية ومجنونة لأن الوسطية هي مفتاح التعامل مع الناس. تجنب عزيزي القارئ الخلط بين الرغبة في التمييز الفكري والتميز في السلوك الاجتماعي، فالشخص المبدع الذي يختلف في أفكاره عن الآخرين لا يختلف بالضرورة في تصرفاته وعلاقاته ولا يؤكد اختلافه من أجل الاختلاف ذاته وحباً فيه. بل على العكس تُبين البحوث أن انشغال الشخص بتأكيد اختلافه الاجتماعي عن الآخرين سيشغله عن تنمية مهاراته الإبداعية وذلك بسبب تورطه في الصراع مع الآخرين.

هناك العديد من النظريات الخاصة بالعصف الذهني والتفكير الإبداعي أذكر منها إحدى النظريات المفيدة نسبياً والتي بالإمكان البحث عنها والاستفاضة وهي: قبعات التفكير الست، وهي عبارة عن ستة أنماط تمثل أكثر أنماط التفكير الشائعة عند الناس، وتعمل النظرية وكأنك كلما لبست قبعة من القبعات تغير نمط تفكيرك. فالقبعة البيضاء تمثل التفكير الرقمي الذي يؤمن بلغة الأرقام والوثائق والإثباتات، والقبعة الصفراء تمثل نمط التفكير المتفائل الحالم الذي يركز على الإيجابيات، والقبعة الحمراء تمثل نمط التفكير العاطفي الذي يفعِّل العاطفة وخياراتها بشكل أكبر وفي كل المواقف، والقبعة السوداء تمثل نمط التفكير المتشائم الذي يركز على السلبيات، والخضراء تمثل نمط التفكير الإبداعي الذي يهتم بالبحث عن البدائل الأخرى، والتفكير بالأمور بطريقة غير مألوفة وجديدة، أو يعطي الكلمات مفهوماً معاكساً، وأخيراً القبعة الزرقاء التي تسمى قبعة التحكم بالعمليات وتمثل نمط التفكير الذي يدير ويضع جدول الأعمال ويخطط ويرتب وينظم باقي القبعات.

إن الفلسفة تحتاج للمبالغة والنقد والتعقيد وتتغذى عليهم. ولكن الحقيقة بسيطة، بل في غاية البساطة لدرجة أنها عادة ما تكون آخر ما يخطر بقلبك.

مراجع:

Edward de Bono - Six Thinking Hats - 1999.

الفصل الرابع
كل شيء أو لا شيء

ماذا لو كانت الحياة ليست إلا حلماً طويلاً والأحلام عبارة عن حلم داخل حلم. أو أن الحياة حلم بينما الحلم حقيقة؛ كتلك الفتاة التي حلمت بأنها فراشة وعندما استيقظت ما عادت تدري هل هي فتاة حلمت أنها فراشة أم أنها فراشة تحلم أنها فتاة. ولماذا الأحلام تبدو أحياناً أصدق من اليقظة وأرسخ في النفس، فلا يمكنك معرفة أنك تحلم حتى تستيقظ وقد نكون في حلم طويل ولَم نستيقظ بعد أو كما في الأديان أن هذه الحياة ليست إلا معبراً للآخرة وأن الموت هو اليقظة من ذلك الحلم.

وحدة الوجود مذهب قديم ويرى به كبار الصوفية والعديد من الأديان والفلاسفة وهو مذهب معاكس لما يقول المجسمة: بأن الله جسم منفصل عن الكون يجلس على كرسي وينزل في آخر الليل للسماء ثم يعود للصعود أو شيء من هذا القبيل، بل إن الله هو كل شيء، ولا شيء سواه، وهو الجوهر وهو ذات الوجود، وأن لا شيء يشبهه وأن الكون ليس حقيقة منفصلة بل ليس إلا مظهر من مظاهر الله. ويرون أن من ادعى الانفصال فقد أشرك، فإن كان هناك شيء غير الله لكان احتمال التضارب أو العلو وارداً وهو شيء منكر. وقد ورد ذكر وحدة الوجود في الشعر والأدب كثيراً من الجاهلية إلى العصر الحديث كقول ابن الحارث: كل شيء مصيره للزوال... غير ربي وصالح الأعمال. بل ويستدلون بالقرآن الكريم. بِسْم الله الرحمن الرحيم **{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}**. وكما ورد سابقاً فإنه رياضياً أي عدد تقسمه على ما لا نهاية يعطيك الصفر.

تذكر أن لك بداية وأنت لا تذكر هذه البداية ولك نهاية وأنت لا تعلم متى هي، فأنت لا شيء تماماً وسيأتي زمان تذهب به الأرض أو تبتلعها الشمس ولربما تأتي حياة في كوكب آخر ولا

يعلمون عنا أي شيء، فلماذا تُتعب نفسك وكأنك مركز الكون! ولكن الله **{هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**، كل ما عليك أن تمضي وقتك في هذه الدنيا الفانية محاولاً البعد عن الظلم.

خذ الحياة كلها بضحك ومرح تعش سعيداً ولكن مت لأجل هدف، وانظر عزيزي القارئ في مذهب فكري أدبـي يسمى بالعدمية (Nihilism)، وينص على أن العالم كله بما في ذلك وجود الإنسان عديم القيمة وخالٍ من أي مضمون أو معنى حقيقي. وهذا لا يعني السوداوية بل على العكس فإذا عرف الإنسان حدوده استغل وجوده استغلالاً عدمياً، وبذلك ينضج فكر الإنسان نضجاً يرفعه من مرتبة الحيوان الذي لا يدرك معنى العدم إلى مرتبة الأديب المدرك له، فالعدم هو الوجه الآخر للوجود، وبإدراك العدم فإنه لن يكون هناك أي معنى لتكديس الأموال أو السرقة والظلم. ولن تخاف المستقبل أو تتحسر وتتمسك بالماضي بل وستستمتع بالحاضر.

وكقول وسط، يمكن القول عزيزي القارئ أن روحك خالده بمقدار ذرة، بحيث إنك زرعت بذرة فأصبحت شجرة فاستظل بها أحد وأرتاح تحتها وذهب ليساعد ابنه، وابنه ساعد ابنه وهكذا. فأنت غيرت في تركيبة الكون مقدار ذرة وللأبد، مما يعني أن روحك وإن كانت ذرة فهي روح خالدة وهي جزء لا يتجزأ من الكل.

هناك نظرية علمية لو سمعتها من غريب فإنك لامحالة ستتهمه بالوسوسة والجنون ولكنك وقد تستغرب أنها محترمة ومتقبلة من قبل العديد من العلماء الكبار ولها أدلة علمية كذلك، وهي مستوحاه أصلاً من الفلسفة الديكارتيه وأُبدع تمثيلها في فيلم الماتركس (The Matrix). تنص النظرية على أننا لا نعيش حياة حقيقية بل نحن داخل نظام محاكاة كمبيوتري مصنوع من قبل حضارة كونية سبقتنا تقنياً بملايين أو مليارات السنين، ونحن لا نعلم ولم نميز بعد أننا مجرد برنامج محاكاة. أو كما يقول العالم راي كورزويل (Ray Kurzweil): «إنه من الممكن أن يكون كوننا مجرد تجربة علمية يقوم بها تلاميذ مدرسة ثانوية في كون آخر». ولكن الظريف في الأمر ماذا لو كان مبرمجونا هم أيضاً داخل برنامج محاكاة من قبل حضارة فاقتهم تقنياً بمليارات السنين وهم لم يعلموا ويعوا بعد أنهم داخل برنامج محاكاة، وهكذا.

مراجع:

Inception - 2010.

The Matrix trilogy, The Animatrix - (1999 - 2003).

الفصل الخامس
النسبية

واعلم أن كل شيء نسبـي فالله وكما ورد هو المطلق الوحيد الذي لا يجوز مقارنته بشيء أو بأحد. وكما ينص مبدأ النسبية: «لا يمكن وصف حركة جسم ما بأنها حركة مطلقة، كل ما يمكن القول إنها حركة نسبية، وذلك لعدم وجود رصيف ثابت للرصد في الكون». والصفات كذلك ليس لها محل من الإعراب إلا لو اقترنت، فلو رميت زيد بالبخل فأنت تقارنه داخل عقلك بنفسك أو بشخص آخر ولكن لو قارنته بعمرو شديد البخل فسيعد زيد كريماً. كما أن الذرة في كوننا قد تعادل بالحجم مجرة في كون ثان ومجرتنا بكاملها قد تعادل ذرة في كون آخر. وعندما يقال إن سيارة ما كبيرة في الحجم فالكلام لا معنى له إلا أن العقل يملأ النقص في الكلام لاشعورياً لتكون الجملة إن السيارة كبيرة مقارنة بالسيارات السيدان الأخرى، لا بالشاحنات ولا بألعاب الأطفال. ولأن كل شيء نسبـي فالقول إن الوسطية هي الحل لا غبار عليه.

افترض العالم هنري بوانكاريه (1854-1912) أن الكون لو تضخم ألف مرة والناس نيام فعندما يستيقظون لن يحس أحد منهم بشيء. السرير والمخدة والتلفاز وجسم الإنسان وحدقة العين والمسطرة والأرض والكواكب والمسافة بينها كل شيء تضاعف في الحجم. فلن تعرف بتضخم الأشياء حتى لو استخدمت جميع الأدوات والحسابات القياسية، إلا في حالة واحدة وهي أنك تنظر إلينا من كون آخر. ولو زادت سرعة كل شيء ألف مرة حتى سرعة الساعة والعين والأعصاب والضوء ودوران الكواكب وسرعة دقات القلب فلن يعرف أو يشعر بذلك أحد.

إن الخاصة الأساسية للمادة وكما في نظر بروتاغوراس لا تكمن في وجودها الموضوعي بل في تغيرها وانتقالها إلى الضد وصيرورتها. ويذكر أفلاطون رأي بروتاغوراس حول نظرية

الوجود وهي أن: «لا شيء يوجد بذاته، ولكن كل شيء ينشأ من علاقته بشيء ما».

حتى الأخلاق والمبادئ التي ظللت تدافع عنها السنين الطوال يراها غيرك ضعفاً ومسكنة فالأخلاق نسبية إلى حد بعيد وأسهل مثال على ذلك الجندي الذي يعد رمزاً للشرف والبطولة هو على وجه الحقيقة ليس إلا قاتلاً آخر. وإذا كان السيد المسيح يقول في الإنجيل: «لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إلاَّ وَاحِدٌ، وَهُوَ اللهُ»، فإن من بين المقصود بذلك هو أن كائناً لامتناهياً وروحاً مقدسة لامتناهية هو وحده فقط الذى يستطيع أن يحيط إحاطة كاملة بأي قيمة من القيم. أما نحن البشر فإننا نرى القيم رؤية جزئية فقط، ودائماً ما تكون رؤية سطحية ومن جانب واحد. ويترتب على ذلك أنه لا يوجد هناك شخصين يكون لديهما نفس الإدراك أو النظرة العقلية لقيمة من القيم. فهناك شخص يرى قيمة من القيم رؤية أفضل من غيره - مثل قيمة الشجاعة - وشخص آخر يرى قيمة أخرى أفضل من غيره أيضاً - كقيمة الصلاح أو الطهر- ويترتب على ذلك أنه لا ينبغي أن نصف إنساناً بالجنون ما لم نفهم تصرفه. فلربما يكون بطلاً أو قديساً أو عبقرياً. وكلام أرسطو يأخذ بالاعتبار إذ يقول: «إن الفضيلة هي الوسط العدل بين رذيلتين احدهما إفراط والأخرى تفريط».

مراجع:

النسبية - د. مصطفى محمود (وثائقي).

Horton Hears a Who - 2008.

الفصل السادس
الرسول

الأديان تعد وبشكل كبير نوعاً من الإرث، وجمالها أنها مبنية على حسن الظن والثقة المتراكمة لا سيما الأديان السماوية، فنحن وثقنا بآبائنا وهم وثقوا بأجدادنا وهم وثقوا بالرسول الكريم وكانوا صحبه، وهو عندما أتاه جبريل قائلاً إنه من عند الله أجابه ولَم يسأله عن دليل على ذلك عليه وعلى آله الصلاة والسلام. ولذلك فإن أجمل وصف له هو ما قالته العرب: الصادق الأمين.

هو الحبيب الذي تُرجى شفاعته

لكل هول من الأهوال مقتحم

حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه

أو يرجع الجار منه غير محترم

إنما بعث عليه الصلاة والسلام ليتمم مكارم الأخلاق والنبـي عربـي وعاش بين شعراء وشرفاء وشجعان العرب ولولا صدقه لما انتشرت دعوته. كلامه كله حسن وكله منطق وغير ذلك لم يصدر منه، فيجب علينا أن نهتم بالمتن كما السند للتأكد من صحة الحديث. ولو اهتممنا بالحديث لوجدنا فيه أرق عبارة وأجمل الحكم: «بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً مُنسيا، أو غنى مُطغيا، أو مرضاً مفسدا، أو هرماً مُفندا، أو موتاً مجهزا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر».

ثم يجب علينا أن نفهم ما قبل الإسلام حتى نفهم الإسلام، لقد كان أغلب أجدانا من البدو الرحل أو في قرى صغيرة، مبتعدين عن الحضارة والحضارات. في بيئة متفتحة فكرياً، محبين للطبيعة وللشعر والمروءة والكرم والخمر. ولكن كان لديهم عنصريه فيما بينهم ولا يرون القتل أو الظلم سبة كما هو الشائع. والشعر على ما فيه من الحكم فقد ساعد كثيراً في حفظ التراث. وكان عليه الصلاة والسلام محباً للتأمل والعزلة، وكانوا يقدرون ذلك فيه ويعلمون أنه سيكون ذا شأن، وقد كان عليه الصلاة والسلام يريد قتل العنصرية أو تخفيفها فيهم فإذا هي تزداد وإذا هم من بعده يسفك بعضهم دماء بعض كما لم تسفك من قبل وفي البيت الحرام وفي الأشهر الحرم.

والنبـي على علو قدره إلا أننا يجب أن نفهم أنه بشر وأما تنزيهه عن الخطأ فذلك يعني بكل بساطة تأليهه، فالله كما ورد هو المطلق الوحيد. الآيات والأحاديث الكثيرة تدل على ذلك ولكن المسلمين يجهلونها أو يتجاهلونها حَمية. على سبيل المثال **{عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى}** وأيضاً **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...}**. وورد في صحيح مسلم أن النبـي عليه وعلى آله السلام مر بقوم يلقحون، فقال: «لو لم تفعلوا لصلح» قال: فخرج شيصاً. فمر بهم فقال: «ما لنخلكم؟» قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم». والإيمان أن شخصاً ما كامل يسبب عللاً نفسية لأن من يؤمن بذلك تجده يبحث دائماً عن الكمال. وكذلك إذا ما صح كمال الخير لأحد فمعنى ذلك احتمال صحة كمال الشر لشخص آخر ليكون ضداً لله وهذا شيء منكر. والقول أن النبـي بشر من لحم ودم وينطبق عليه ما ينطبق على غيره من البشر لا يعد انتقاصاً من الدين بل على العكس به يُعطى الدين الجانب الجمالي والإنساني.

ليس هذا وحسب فمن وصلته الرسالة دون الرسول فقد تم المعنى واكتمل المراد فهناك الكثير يؤمنون أنه لا إله إلا الله ولكن لا يعلمون شيئا عن النبـي العربـي الكريم وهذا لا يضره ولا يضرهم. المعضلة في الكنيسة بحيث لو أن قوماً أو حتى رجلاً نشأ وعاش منعزلاً عن البشر في جزيرة أو حتى ولو في كوكب آخر ولم يؤمن بالسيد المسيح ابن الله فسيكون مصيره النار، لأن المسيح في نظرهم هو المخلص الوحيد. وكيف له أن يعرفه وهو معزول عن البشر!

وأما عن الحديث عن وجود منافقين من أصحاب الرسول ومن كبار أصحابه كما في المذهب الشيعي فأي نعم والآية صريحة وواضحة **{وَمِمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}**

وكذلك الطبيعة البشرية تقول بذلك ولكن من الخطأ تسمية فلان أو فلان والتعين وادعاء أنه منافق وأنه يكره النبـي وآل بيته الأطهار ولعنه في كل صلاة وما شابه.

إن الإسلام هو أكثر دين نهى عن الكهنوت والتبعية وجعلها شركاً بالله، وأمر بالتدبر والتفكر والاجتهاد. ولكن للأسف وبفضل السياسة ونزاعتها بشكل رئيسي فإن العكس أصبح صحيحاً وصار الإسلام أكثر دين فيه كهنوت وأصبح هناك مذاهب وفرق وأزهر وحوزة وأصبح هناك ما يسمى بالعلماء، ومن ثم كبار علماء، وشيخ للإسلام، وصدر العلماء، ومرجع أعلى... إلخ. يحللون ويحرمون لنا ويصدرون صكوكا للجنة والنار ويهدوننا سبل الرشاد. وإن أحد الأسباب الرئيسية لانتشار الأمراض النفسية والجنون في المنطقة هو التدين وهو بالطبع تدين وفهم خاطئ لله وللإسلام.

مراجع:

أحمد القبانجي - حقيقة الوحي لنبـي الإسلام محمد - محاضرة مسجلة.

جمال البنا - جناية قبيلة حدثنا - 2008.

Bob Marley - Redemption Song.

الفصل السابع

حسن الظن هو الجواب

ستأتيك مرحلة لن تستطيع التفريق فيها بين الخطأ والصواب، والعدو من الصديق. وسيكون أمامك خياران إما الوثوق بالجميع، وإما ألا تثق بأحد فاختر. حتى الله لم نره جهرا كما طلب اليهود من موسى عليه السلام ولم نتكلم معه جهارا، كل ما علينا أن نحسن الظن به فكما ورد عن النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام عن ربه «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء» فالجواب الوحيد هو حسن الظن.

بكل أسف المسلمون اليوم لا يعرفون الله أو أنهم يعبدون الإله الخاطئ الذي صوره لهم المشايخ المضلون وعلماء السلطة فهو: منتقم، جبار، حقود، متكبر، له جسم ويدان ورجلان ومحدود المكان، يجلس على كرسي في السماء، يرقبنا في كل صغيرة وكبيرة ويتصيد الأخطاء، يستهزئ بنا ويعذبنا عذابا أبديا لو لم نقتنع ونؤمن به، بنار يشوي المذنبين بها ويجبرهم على أكل الفضلات وشرب الماء المغلي للأبد. ويأمرنا بقتل غير المسلمين وكرههم وحتى الأطفال ويحرم الحب والضحك والموسيقى ويجعل النساء كالعبيد أو المتاع. ولو نظرت للوصف السابق عزيزي القارئ فستجد أنه أقرب لوصف الشيطان منه لوصف الله. فالكثير من المسلمين للأسف يعبدون الشيطان من حيث لا يعلمون وهم بهذه الحالة أسوأ ممن كفر بالله جملة.

أي نعم أن الله وحسب النصوص القرآنية قد يعذب للأبد، وأنه **{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ}** ولكن ومع ذلك وما نسيناه هو أن رحمته سبحانه وسعت كل شيء، وكل شيء أي كل شيء. فالرحمة أشمل من المغفرة، وكل شيء أمد من الأبد، ثم إن دائماً وأبداً رحمة الله سبقت غضبه، وهي قاعدة فصل لأي اختلاف يظهر بين آيات الرحمة وآيات العذاب. عن أبي هريرة قال: قال رسول

الله: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي، وفي رواية: غلبت غضبي، وفي رواية: سبقت غضبي». متفق عليه.

أخيراً والاقتباس من كتاب حوار مع صديقي الملحد للدكتور مصطفى محمود، إن الجنة ليست سوقاً للفاكهة والخضار، ولا النار فرناً لشوي اللحوم. وأن التعذيب في الآخرة ليس تجبراً من الله على عباده، وإنما هو تطهير وتعريف وتقويم ورحمة. **{مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ...}**.

مراجع:

Bob Marley - Could You be Loved.

طه حسين - كنت أعبد الشيطان.

الحبيب عياد - الكلام في التوحيد: جذور المسألة وروافدها وتطور الجدل فيها بين أهم الفرق الاسلامية الى القرن الخامس الهجري - 2009.

الفصل الثامن
التعرض للأطفال

لو أن شخصاً ما من أقربائك أو جيرانك تحرش بك جنسياً وأنت طفل ولنقل فرضاً أنك كنت بعمر تسع سنوات قائلاً لك ومقنعك وأن لا تخف أنه شيء جيد ولكن لا تخبر أحد أو شيء من هذا القبيل. ثم استوعبت بعد سنة أنه خدعك وأن ما فعله محرم عرفاً وقانوناً وشرعاً، حينئذٍ سيسأل عقلك ألا يخاف الذي تحرش بـي وخادعني أن أفضحه أو أن أواجهه عندما أكبر؟ ثم ستحلل الوضع على أنك ستنسى هذا الأمر لأنك وبكل بساطة لا تذكر أي شيء مما حدث لك قبل سبع سنوات (وهذا شيء طبيعي لأن كل الناس لا يذكرون أي شيء قبل عمر ثلاث سنوات تقريباً، وهو ما يسمى علمياً بفقدان ذاكرة الطفولة)، ولكنك تكبر وتنتظر النسيان وتمر السنوات دون أن تنسى، والمشكلة أنك لاحقاً قد تتحرش جنسياً بطفل آخر لأنك تظن أنه سينسى هو الآخر، وتظل هكذا لفترة من العمر حتى ولسبب ما تستوعب حجم الوهم والخدعة وعلى أمل أنك لم ولن تنقل داءك.

حين نتحدث عن التحرش بالأطفال فإننا نذكر الرجال وننسى أن هناك نساء يتحرشن بالأولاد أو حتى البنات، وأن هذا الأمر وإن لم يكن به ألم جسدي على الطفل فإن ألمه النفسي قد يكون أكبر، إذ يسبب العديد من العقد النفسية والحيرة للطفل وقد تستمر معه حتى يكبر. إن العلاقة ما بين التعرض للتحرش طفلاً والاضطرابات النفسية والجنسية علاقة طردية واضحة.

ويصعب التعرف على نسبة من تعرضوا للتحرش عندما كانوا أطفالاً لأن الأمر مرتبط بالكتمان والخجل. تشير التقديرات إلى أن ما يقارب العشرين بالمئة من النساء وثمانية بالمئة من الرجال تعرضوا للتحرش صغاراً في الولايات المتحدة، أما في المجتمعات العربية المنغلقة فلا توجد دراسات محترمة ولكن الرقم يتوقع أن يكون أكبر من ذلك. كذلك تشير الدراسات إلى أن التحرش

يكون غالباً من قبل الأقارب والمعارف أكثر من كونه من شخص غريب. وأما من لم يتعرض للتحرش أثناء طفولته فإنه إما يعيش درويشاً لا يعلم شيئا عن التحرش أو العكس فهو يرى الأشخاص الذين تعرضوا للتحرش وهم في تخبط وألم ويحس بهم، فيتألم لألمهم وأحياناً رؤية النار أشد عذاباً من الدخول فيها.

الشخص الوحيد الذي سمعه الكاتب يعطي الموضوع أهمية وناقشه بشكل احترافي ومرتب هي مقدمة البرامج الأمريكية الشهيرة أوبرا وينفري (Oprah Winfrey). والسؤال البريء الذي يطرح نفسه لماذا تقام الندوات والجمعيات والإعلانات الكثيرة والكبيرة عن أضرار التدخين بينما لا يتحدث أحد عن الاستغلال الجنسي للأطفال! وهو في كل بيت، وهو كالفيروس المصاب به إما ينقله لغيره أو يموت من الكظم. وهل هناك لا قدر الله من ملعون وغد فاسق يعتقد أن ذلك أمر حسن دينياً أو أنها سنة الحياة أو شيء من هذا القبيل! إن سكوت المصلحين والشيوخ والطبقة المثقفة عن هذا الأمر والتزامهم الحياد وعدم ذمه يُصيب بالجنون. إن الأمر لا يتحمل الحياد وأنتم بحيادكم مشاركون في الجرم.

مراجع:

Mystic River - 2003.

Lupe Fiasco - Superstar.

الفصل التاسع
المجاز

قضية أخرى وهي المجاز، والمجاز معترف به عند العرب ولكنه ليس الأصل فعندما يقال: تفضل فنجان من القهوة، أي مد يدك لتأخذ الفنجان، والمجاز أهلاً وسهلاً معتبر. يستثنى من ذلك بعض الكلام كالقول أن زيد ذئب وأن عمرو لا تطفئ له ناراً فيكون المجاز هو الأصل، ويستثنى أيضاً ما يكون في الجيوش والعصابات وحتى بين بعض الأخوة كنوع من التشفير المتفق عليه بحيث لا يفهمهم الغريب ويكون للتشفير مفتاح. أبسط مثال كمن يعكس الضمائر (أنا تعبان أي الآخر تعبان، وأنا مبسوط أي الآخر مبسوط)، أو من يعكس الأفعال فأنا أحبك أي أنا أكرهك، وكذلك البعض عندهم الصدق من الكذب غير معتبر فيألفون الحكايات للترميز والمجموعة لا تعطي اعتباراً إن كان ذلك صدقاً أم كذباً بينما الغريب يظن أنها حكاية حقيقية. ويستثنى أيضاً الفن والشعر نوعاً ما فالمجاز فيه أساسي، ولولا الغموض ما كان الشعر. هذه عزيزي القارئ مقطوعة أدبية ـ باللغة الإنجليزية ـ فيها كثير من المجاز أو الترميز لا يفهمها إلا شخص معين ومن اقترب منه مكاناً أو فكراً:

Two bishops one knight

A grand wizard and a deadly crocodile

Sahara blue and Japanese jazz flow

Fifteen men dead for a chest

It’s not the crocodile but the rum kills

I like it when it’s afternoon

I can see the sun as well the moon.

Oh darling I can’t go any further than this

There are four blind villages

Fighting each, each others

Two out of four are so called good

Another two are pure evil

Two out of four do the work killing

Another two kill by talk

Knowledge is the only treasure

Love is revenge and revenge is love

Nothing else.

To kill you need two strikes

I guess everybody deserves a second chance

Guns do nothing but does

Any magic smoke will be gone

Every village has a crazy king

Can’t be seen or touched but
you may know them from the smell.

To move from good to bad it’s up to you
To move from bad to good you have to say the truth
Loud and clear or raise a family
Without hurting any who
Every village has soft slaves
They hurt themselves to get strength.

Every village has animals too
Dangerous, mixed up and super-super sensitive
They have totally different rules, came from another planet
But if you play with fire you get fired as abbreviation
The house of pain and the house of secrets
Three monsters remind mystery
Howling all days and nights
A wolf son of a dog
And a dog proud of his father the wolf

And a vampire who terminate you

If you tell him be a wolf.

Jokers live between the villages

A joker terminated his image in the mirror

Nothing else matter

A joker was naughty as a kid

So why are you so serious?

And a family joker

Who Can’t say much.

Father owns half his child

Mother owns the other half

Grandfather and Godfather have influence

It’s all missed up if you can multiple

And add between and details

You get an infinite possible chance

Illusion, illusion plus stupid minds

A lady finger will blow up your mind.

The earth has music Karma is around

I will leave the fight for a tea cup from your hand

It’s so complex yet so simple and

If you close your eyes and relax

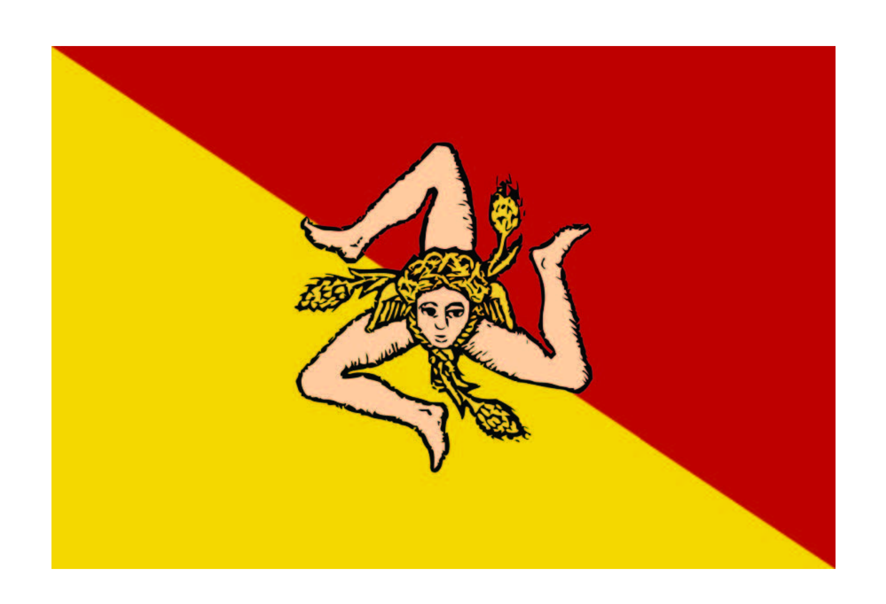
You can see it all and behind

It’s all about a kiss

and our last game of chess

Darling.

الناس مذاهب، تذكر ذلك دائماً فالتربية تختلف والظروف تختلف والتفكير يختلف ولا يمكن قراءة ما بين الأسطر وبواطن الكلام. والكاتب كالصعيدي والصعيدي لا يفهم إلا صريح الكلام وحسنه وما التشفير إلا غيبة لا تجوز إلا ما كان إيجابياً ظاهراً وباطناً وكذلك أن يكون قليلا وبالسليقة، فلو كان الباطن أو الظاهر سلبياً فسيدب يوماً ما الخلاف بين الجماعة، ولو صفعتني كفاً مدعياً أن ذلك رمز للحب فإن ذلك من الغباء. والشيطان لا يخشى أحداً كما يخشى الصعيدي الحقيقي لأن لا مدخل له عليه. وكل خطة تفعلها تكون قابلة للاختراق إلا الخطة الوحيدة وهي ألا تملك أي خطة، فكل ما عليك أن تعامل الناس بالحسنى والسماح.



علم صقلية، والأعلام عبارة عن رموز وشعارات

ثم إن هناك أمراً آخر قد لا يعرفه الجيل الجديد، رأيت أناسا كلاسيكيين أفاضل لو لاحظتهم فستجد أنهم يستبدلون أي كلمة قد تحمل ولو من بعيد معنًى باطنياً أو مجازاً مذموماً بأخرى تحمل طابعاً حميداً، وهذا قمة الفن والأدب والإحساس والبريستيج. على سبيل المثال لو جاء زيد ينتظرك عند بيتك فعدما يتصل أو يرسل رسالة لا يستخدم كلمة «انزل» ولا حتى «أنا انتظرك بالأسفل» لأن النزول أولاً به أمر وثانياً قد يشير ولو من بعيد بالنزول المعنوي أو النزول في المقام. فيستبدلها بكلمة أخرى جميلة مثل «أنا عندك» والتي تُفِهم نفس المعنى الظاهري ولكن معنوياً ومجازاً تشعرك بالارتياح ولو بنسبة غاية في الضآلة ومعناها قد يأتي كالقول إني كلي لك أو أنا دائماً تحت أمرك أو أنني في معيتك أو شيء من هذا القبيل. بل إن الأمر به ذكاء لغوي فتجد أحدهم يتحدث بلباقة مع مجموعة من الأشخاص دون أن يجرح أحدهم بطرف كلمة أو بمجاز يحتمل المعنى السيئ. وبالفعل الأمر ليس تشدقاً فماذا يضر لو استبدلت كلمة «انزل» بكلمة «أنا عندك». أي نعم الدخول في النيات ولي أعناق الكلام ممنوع ولكن الجيل الجديد ما عاد يهتم بالآداب والذوقيات. بل تجد أن أحدهم يتفوه بالكلمة التي قد تحتمل المجاز السيئ وراء الكلمة الأخرى وبنبره جافة أيضاً. حتى تشعر أحياناً أنه يتعمد ذلك، ولكنك بالتأكيد لا تستطيع مصارحته لأن كلمة أنزل ليست خطأ أو عيب، وسيقال عنك أنك موسوس أو مريض نفسي لو صارحته، رحم الله أيام الزمن الجميل.

مراجع:

DMX - Lord Give Me a Sign.

الفصل العاشر

وهم الزمن

الزمن وهو الزمان هو اسم لقليل الوقت وكثيره. وفي الفيزياء هو بعد فيزيائي رابع للمكان حسب النظرية النسبية الخاصة، وهو لا يعدو وسيلة لتحديد ترتيب الأحداث بالنسبة لمعظم الناس. فاليوم ما هو إلا المسافة التي تدور بها الأرض حول نفسها دورة كاملة والدقيقة ما هي إلا حركة البندول لستين مرة والعام 2000 هو دوران الأرض حول الشمس 2000 مرة منذ ميلاد السيد المسيح، وهكذا. فالزمن لا يعدو كونه جزءاً من المكان فلا يمكن قياس أو حتى وجود الزمن إلا بالحركة. ويتم حساب الزمن بقسمة المسافة على السرعة أي أنه إذا ركض شخص لمسافة 200 متر بمتوسط سرعة 4 أمتار في الثانية فإن الزمن يكون 50 ثانية.

الغريب في الزمن أنه يبدو يسير باتجاه واحد، وهو للأمام فقط، فلا يمكن العودة للأمس بينما على مستوى المكان يمكن العودة لنقطة سابقة وتقريباً كل الفيزياء فالكثافة تزيد وتنقص والوزن كذلك والمجنون يفيق ويزداد جنوناً وحالة المادة تتغير، ولكن الزمن يسير باتجاه واحد فقط فإذا سقطت كأس زجاجية من يدك على الأرض وكسرت فلا يمكنك التراجع وتجميع الزجاج إلا بعملية أخرى طويلة ومصنعية. فالزمن إذاً يسير منذ الانفجار العظيم من النظام الفائق إلى العبثية والتشتت وهو ما يعرف بالإنتروبـي (Entropy).

ولكن نظريات الفيزياء الحديثة تقترح أن الزمن ككل الأشياء يمكنه السير في اتجاهيين ويمكن نظرياً السفر للمستقبل أو الماضي، وبحسب علماء وفلاسفة آخرين فإن الزمن ليس إلا سجنا من الوهم فالماضي موجود الآن والمستقبل قد وجد. والمستقبل يؤثر على الماضي كما أن الماضي يؤثر على المستقبل، وكل الأوقات موجودة في كل الأوقات.

ولأن كل شيء نسبـي فالزمن نسبـي كذلك، فاليوم في المريخ يختلف عن اليوم في الأرض. وجلوسك ساعة مع حبيبك تبدو كلحظة بينما لو وضعت يدك للحظة على الموقد ستبدو كساعة كما جاء على لسان العالِم أينشتاين. ومع السرعة أيضاً يتباطأ الزمن فعندما أرسل علماء ساعة دقيقة في صاروخ يسير بسرعة عالية لوحظ تباطؤ طفيف في الساعة مقارنة مع ساعة أخرى على الأرض. وهكذا يتم السفر للمستقبل بحيث يستقل المسافر صاروخ فائق السرعة في رحلة قريبة من سرعة الضوء ليوم ثم يعود للأرض فإذا بها عشر سنوات قد مرت بينما هو لا يزال شاباً لم يمضِ عليه إلا يوم. ولو وصل أحد لسرعة الضوء لتوقف عنده الزمن ولو اجتازها أو مر عبر أحد الثقوب الدودية في الفضاء لربما رجع بالزمن إلى الوراء.

لا تجعل لك أهدافاً مرتبطة بالزمن، فالزمن ليس إلا وهماً ولا يهمك الماضي والمستقبل ولا كبر أو صغر سنك بل عِش اللحظة ولا تجعل الزمن عدوك فيقضى عليك. أنت لم تشهد ولادتك ولا تذكر بدايتك ولا تعلم متى موتك ونهايتك وكيف هي وبين ذلك تنام كل يوم لا تدري ما يحدث خلال نومك والمسافر الحق كما قيل يريد السير لا الوصول، ثم توقف عن التوقعات وعندها ستحس بالرضا وستكون الحياة أجمل.

مراجع:

The Fabric of the Cosmos - The Illusion of Time (documentary).

Twelves Monkeys - 1995.

الفصل الحادي عشر
الشيطان والشر

الشيطان ما سُمي شيطاناً إلا لأنه يأتيك بأسمى ما تحب من المبادئ والأخلاق. يعزف على وتر الشجاعة لمن يقدس الشجاعة، ويعزف على وتر الكرم لمن يحب الكرم، ويعزف على وتر العلم لم يحب الثقافة ويعزف على وتر العناية بالأبناء لمن يقدس الأبوة وإن كنت تحب الدين عزف على وتر التدين، وإن كنت تقدس الحب عزف على وتر المحبة وهكذا. فلا تظن أنه غبـي يأتيك صراحة ويقول: اكذب، غش، اغتصب، اسرق، واقتل.

دائماً يعطيك الحرية والاختيار، يعطيك خيارين إما الفعل السيئ الذي يشعرك بالارتياح مؤقتاً كالغضب مثلاً أو المزاج السيئ لأنك لم تنفس عن غضبك والذي سيقود لفعل آخر سيئ. يأخذ منك كل شيء ويعطيك شيئاً أو شيئين جميلين كطُعم ولكي تظل في دوامة هل هو يريد مصلحتك أم يكرهك؟ والشيطان تعرفه ببساطة أنه خلاف المنطق، كما جاء في المثل «ما غريب إلا الشيطان». وهو يريد أن يرى من هو أسوأ منه ليرتاح، فيوسوس للآخرين وكأنه مصاب بنوع من فصام الشخصية.

وهو يستغل كل شيء؛ في البدء يحرمك من الحب فإن أحببت حرمك من الزواج ومَنّ عليك أنه ساعدك في إيجاد الحب. فإن تزوجت خلق لكما المشاكل ومَنّ عليكما بالزواج، فإن لَم يستطع استغل حبكما ليسبب به ضرراً للآخرين ومَنّ عليكما بالسعادة الزوجية وهكذا. لا يترك شيئاً حميداً أو خبيثاً إلا استغله.

السؤال الذي أرقني السنين الطوال هو: ماذا يستفيد الأشرار من سيارة فارهة جديدة، وهي من مال اليتامى؟! كيف يفكر الأشرار؟ ولماذا يفعلون الشرور؟

- أولاً، ماضيهم يسحبهم فالسارق يغيظه كل شريف حتى يصل لليأس ومن ييئس من روح الله فلا يرتجى منه شيء.

- ثانياً، كلٌّ يرى الناس بعين طبعه فيظن المخادع أن الآخر يريد خداعه والكذاب يظن أن الناس تكذب عليه فهم سلبيون دائماً يلومون كل الناس حتى يصل الأمر للمرء أن يلوم والديه اللذين جلباه للدنيا، وحتى يصل بأن يلقي اللوم على الله الذي أوجده في أول الأمر. بِسْم الله الرحمن الرحيم **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}**.

- ثالثاً، الأشرار يضغطون على شخص طيب معين من كل النواحي الاجتماعية والمادية والنفسية حتى يصاب بالجنون ويصبح منبوذاً ثم يقال أن الطيبة ليست إلا ضعفاً وظلماً للنفس.

- رابعاً، هناك مبدأ يسمى الكارما وهو مفهوم وفلسفة عريضة والجزء المهم هنا هو أن من يفعل خيراً سيرد له ومن يتلاعب بالناس سيتلاعب الزمان به ولكن الأشرار يريدون لعبة الحياه شديدة التعقيد بحيث لا يأتي ذلك اليوم وأن يعيشون أغنياء بسفههم.

- خامساً، ينتقم الأشرار ويتنافسون في القوة بين بعضهم البعض ويقع الطيبون في ما بينهم ككرة تنس بين مضربين.

- سادساً، الخوف. فإذا كانت الصراحة هي محرك الخير فالخوف هو محرك الشر، إذ يخافون الفضيحة والفقر وغيره فيفعلون مزيداً من الشر.

- سابعاً، وهو الشيء المعروف وهو الشهوة، شهوة المال والشهرة والجنس وغيره.

- ثامناً الأنا فالأشرار لا يهتمون بالآخرين كثيراً بل ويشعرون بالطاقة الايجابية

والسعادة كلما خاف منهم أو خدعوا أحد، وهم خالون أو شبه خالين من التعاطف والشفقة. عندما سئل بعض كبار المجرمين: ألا تقلق عندما تسبب الضرر للآخرين؟ كان الجواب ببساطة: ولماذا أقلق إنهم ليسوا أنا. وهو ما يسمى في علم النفس (Antisocial personality disorder) أو الاسم المعروف سايكوباث (Psychopath). إن الحياء نعمة من الله وفخر عند العرب بينما هناك للأسف أشخاص يفعلون المصائب وكأن لا أحد يرى أو يسمع. بل ويتفاخرون بالشر، وأني خدعت فلان المغفل وكذبت عليه، أو أني جعلت منه أضحوكة. هناك نوع من الفصام صاحبه يعتقد أنه ميت أو أن لا أحد من الناس يراه أو أن غضب الناس لا يؤثر عليه. بِسْم الله الرحمن الرحيم **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}.**

- تاسعاً، هناك ميزة قد تكون عند الأشرار وهي أنهم ونوعاً ما يأخذون الحياه ببساطة، فعندما تقسوا على ما يسمى بالشرير لا يحقد طويلاً ويجمعها بصدره بل يرد القسوة مضاعفة. بينما ما يسمى بالطيبين وإن كان فعلهم جيد بعدم رد القسوة إلا أن قلوبهم نوعاً ما تجمع الحقد (أو عدم الرضا بقضاء الله والقناعة) ويظنون أن الأشرار مثلهم قاسين القلب فتصيبهم الحيرة والتوهان ويزداد غضبهم. وأحد الادلة على ذلك هو أن الانتحار يكثر عند الفلاسفة والمفكرين وأصحاب الخلق الرفيع، بينما نادراً ما تجد شخص سيء ينتحر. وإنك عندما تكون جميلاً فستقارن غيرك بنفسك وترى الحياه قبيحة، وعندما تكون قبيحاً ستقارن نفسك بغيرك وترى الحياه جميلة، والصبر هو سيد الموقف.

- وأخيراً، ربما كل هذه الأسباب لا تعد منطقية ولكن إذا لم تجد سبباً فضع احتمال أن الشرير طاح على رأسه وهو صغير ولا تتعب روحك بالتعليل يا قلبي. ثم لماذا تتعب نفسك بالتحليل والله خالقهم، دع الله يتحمل مسؤوليتهم، **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}.**

وكملخص فالافتراض إذاً هو أن الأشرار ليس هدفهم هو إلحاق الأذى بالآخرين فلا معنى لهذا الهدف ولكن مراد الأشرار هو الهروب من أنفسهم ومن الإحساس بالفراغ، ويفعلون ذلك بالألاعيب والخداع وفعل مزيد من الشر، وكل ذلك لشغل أنفسهم. فهم لا يعيشون إلا بالفوضى. إن أقرب مثال تشبيهي لتوضيح فعل الشر وتبسيطه هو تدخين الحشيشة. في البدء تكون نقياً، تسمع عن الحشيش في القصص والأفلام وتعتقد أنه من سابع المستحيلات أن تجربه، يأتي يوم ويدسه لك صديق أو يزينه لك وتجربه من باب حب المعرفة، تحس أنه ليس بذلك الشيء ولكنك تكمل لمعرفة آخر الفيلم، يشعرك بسعادة شديدة في يوم من الأيام ومن ثم تتحمس له بغباء، يرفضه جسمك في يوم آخر وتحس بالرهبة والخوف، يطمئنك أصدقاؤك وأن ما جرى كان بسبب ظرف أو شيء معين، تعود له من جديد بين لحظة جنة ولحظة نار، تدخنه في أغلب الأيام، تتغير حياتك الاجتماعية لصالحه، تدعو له وتحاول إغراء أصدقاء جدد، تدمن عليه وتصبح حياتك من دونه مجرد فراغ. وكذلك الإقلاع عن الشر هو أشبه ما يكون بالإقلاع عن الحشيش، يحتاج لشجاعة وتضحية وصبر على إحساس الفراغ، وبُعد عن المدمنين الأصدقاء إلا للسلام.

والأشرار يعلمون أو لا يعلمون ولكنهم يفضحون بعضهم البعض، فهم يطورون أساليبهم في كل مرة يظلمون بها بينما الطيبون أو المظلومون يتعلمون عندما يُظلمون فلا يقعوا في حفرة مرتين. كأنه عمل ساحر يفكه ساحر آخر بدون قصد، كل ما عليك عدم نقل الظلم والصبر. أو كمن يلعب الشطرنج ليتعلم ويستمتع بطيبة ومن يلعب الشطرنج ليفوز وليلقن الآخر درساً.

صدق أو لا تصدق عزيزي القارئ إن 99% من الناس طيبو الأصل، المشكلة هي في انعدام التواصل الفعال (Miscommunications)، بحيث يبقى الناس بعيدين عن بعضهم ولا يرون بعضهم بعضاً على حقيقتهم، والخوف ونقص الثقة له دور كبير. والـ 1% الباقية هم حلقة الوصل البغيضة التي لا تريد أن يجتمع الناس على الخير لذلك هم يظهرون على السطح ويبدون كثر. وهم كالطفيليات التي لا تستطيع العيش إلا على غيرها.

وفي الناحية الأخرى يأتي جزء من ال 99% وهو الـ 1% الأبطال المجهولون الذين يبذلون أنفسهم فداء الإنسانية ويرون أن ما يقومون به شيء واجب وطبيعي. الـ98% في المنتصف يقع عليهم اللوم أيضاً لأنهم لم يتحركوا للدفاع عن الحق وهم وإن كانوا طيبي الأصل إلا أنهم في حالة

ما يسمى بالمذهب الواقعي. انشغال بالأعمال والحياة ومساعدة من يساعدهم غالباً، كالرجل الذي بالمرآة لا يحييني إلا إذا حييته وإذا سببته رد نفس السبة.

من نظرة علم النفس الداروينية فإن عمل الخير ومساعدة الأقارب والأبناء تكون للحفاظ على الجينات ونشرها وهو أمر واضح ومنطقي وأما مساعدة الغرباء فتكون لتبادل المصلحة. وأجروا دراسة على الخفافيش مصاصة الدماء بحيث إن الخفاش عند يمتص الدم من حيوان ما فإنه يمتص بكميات كبيرة ثم يتفل الفائض إلى أفواه الخفافيش الآخرين لإطعامهم. لكن المشكلة أن هناك بعض الخفافيش تغش بحيث تستفيد من الآخرين ولا تعطيهم دماً مقابل ذلك وكذلك كثير من الناس. وبناء على ذلك فإن الخفافيش التي تغش تستفيد أكثر وعندها فرص أكبر للبقاء وأن الخفافيش التي تساعد ستنقرض، ولكن في الحقيقة العكس هو الصحيح والسبب وكما حلل العلماء إن الخفافيش التي تغش يتم تميزها وحصرها وعدم مساعدتها كنوع من العقاب في المستقبل فتصبح منبوذة وكذلك الإنسان. ولكن الإنسان أذكى وخصوصاً مع تعقيدات الحياة وكبرها فإن الأشرار يسرقون خفية من أشخاص معينين قدر المستطاع ثم يبذلون عُشر ما سرقوه في أعمال الخير ومساعدة الناس مع الكثير من الدعاية والحيل النفسية وتسليط الأضواء ليتم تقبلهم اجتماعياً، ولذلك فإن المشكلة الرئيسية وكما ذُكر هي في انعدام التواصل المثمر. ولذلك فإن الكاتب من أنصار الانفتاح الاجتماعي والإنترنت والعولمة بمعناها الحميد. وأن حل مشكلة الشر يجب أن تكون اجتماعية بالدرجة الأولى وليست فردية على طريقة علم النفس، بل تكون بسن القوانين والتوعية العامة والإعلام ونشر الحريات والعلوم ونزاهة القضاء وغيره.

كما أنه لا يوجد شرير مطلق ولا خير مطلق، كل ذلك ليس إلا خيال أفلام، لأن الله هو المطلق الوحيد. حتى من ظلمك مرارا لا تدري لعله بكى عليك أو أنه رُفِع عنه القلم وغفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر. تأكد أن من تراه شريراً فإنه يعيش في دوامة كما أنك أنت تعيش في دوامة بين فعل الخير والشر ولكن نفسه ضعيفة وجانب الشر سيطر عليه. وأن الإنسان ومهما فعل من المصائب والكبائر والكفر فإن رحمة الله أوسع من كل شيء وتأكد بأن الله قادر على هدايته. فادعُ لمن ظلمك بالهداية لا بالهلاك لعله يعتذر منك أو ينهي حياته بفعل الخيرات ومساعدة الناس.

ولعله ليس هناك أشرار من الأصل فالله لم يخلق شراً بل خلق الخير فقط. الله هو النور والنور يأتي منه الحب، والحب يأتي منه الجمال، والجمال يأتي منه النور، والحب منه وله سبحانه

ولا شيء سوى ذلك. وموضوع الشر ببساطة يشرحه قانون نيوتن الثالث «لكل قوة فعل قوة رد فعل، مساوية لها في المقدار ومعاكسة لها في الاتجاه، تعملان على نفس الخط وتؤثران على جسمين مختلفين»، فلولا الفقر ما كان الكرم ولولا العناء ما كانت المواساة، أو الين واليانغ في الثقافة الصينية. حتى الكوارث الطبيعية التي تدمر وتقتل ما هي إلا تنفيس عن الأرض، والأرض لا تهتم بأحد معين.

والشر بصفه عامة ليس بكائن إنما هو انعدام الخير كما أن البرد هو غياب الحرارة والظلمة هي انعدام الشمس. الشر هو ببساطة علة الخير (فهو ليس شراً)، والخير هو علة الشر (يبقى خيراً)، وقد تُعكس الجملة، كل يرى الناس بعين طبعه، وأنك عندما تفعل خير فأنت نوعاً ما تقوم بشر غير مباشر فلا داعي أن تمن، وأنك عندما تفعل الشر فأنت نوعاً ما تقوم بخير غير مباشر فلا تيأس من رحمة الله. وأن علة علة الخير هو الخير نفسه، وعلة علة الشر هو الشر نفسه، ويبقى الأصل هو الأصل، وعلى الباغي تدور الدوائر.

مراجع:

Philip Zimbardo - The Lucifer Effect, Understanding How Good People Turn Evil - 2007.

الفصل الثاني عشر
النفاق مزدوج

المنافقون كما الأشرار أو هم رأس الشر إن صح التعبير فهم يزيدون الثقل على ظهرك وأهم ما يميزهم هو ثقالة الدم والجدية الزائدة، وأصعب شيء عليهم هو الفن الحقيقي وإدخال السرور على قلبك. لا تظن أن المنافقين كما تصورهم الأفلام مكروهون بغيضو الشكل منبوذون بل على العكس أغلبهم مصلحون وشيوخ وأهل خير وجهاد (مزيف) وكذلك تجار وفنانون مشاهير وعلماء وسياسيون وأصحاب مناصب وغيره وقد تجد لهم العديد من التابعين والمعجبين المخدوعين بهم. في البدء تغتصب ثم تضغط على من اغتصبت خوفاً من الفضيحة ثم تثير حوله الكلام ثم تقتله غدراً بدون قتال ثم تستغل أهلك وأبناءك وتتلاعب بهم. ثم تصبح مصلحاً اجتماعياً وإمام مسجد، كملت.

إن الأشرار الحقيقيين (Psychopath) والذين هم في قمة الشر ليسوا أولئك القتلة الذين يقبعون في السجون وتجرى عليهم الاختبارات النفسية والتحاليل فهؤلاء أشرار فاشلون، بل هم أولئك القتلة الذين يصفق لهم الجميع ويملكون سمعة وعوائل محترمة، أولئك أمثال الذين يملكون الإعلام والشهرة، الفاتيكان والأزهر، والمناصب والأموال.

ما لا يعرفه الكثيرون عن النفاق أن النفاق مزدوج، الأب ينصح أبناءه بالاجتهاد وهو لا يؤمنون به والأبناء يجاملون أباهم. أنت تدعي أنك إمام وصديقك يدعي أنه قِس وتنصحان بعضكما البعض ولكن ما لا ينبت عن القلب لا يثمر. زوجتك تكره الحجاب وترتديه لأجلك وأنت تخشى أن تقول لها اتركي الحجاب فتظن أنك لا تغار، أنت مجنون تمثل أنك عاقل أمام صديقك الجديد وهو أجن منك ويمثل أنه عاقل أمامك وهكذا.

رأيت أشخاصاً لم يهتموا بالنساء ولا السلطة ولا المال يوماً، كل ما في الأمر أنهم يمثلون ليبدوا طبيعيين مثل الغالبية. ولكنهم في الحقيقة يكذبون على الجميع ويكذبون على أنفسهم حتى كادوا أن يصدقوا الكذب. عندما كنّا أولاداً كان الأولاد الأكبر منا قليلاً إذا مرت فتاة يقال انظر فتاة جميلة يا ليتني أتعرف عليها. ثم لما كبرنا قليلاً صار الأولاد يتفاخرون بالسيارات أيضاً، ونحن تعلمنا منهم ولكن داخل أنفسنا لو جئت للحق ليس بذاك الأمر الهام ولكننا كنا وما زلنا نجاريهم في الحديث. يبدو أننا نكذب على بعض كذباً مزدوجاً، بل ونعيش في دوامة كبيره من الكذب والنفاق.

رأيت أيضاً أناساً معكوسي النفاق يظهرون الكفر والظلم ويبطنون الطيبة والإيمان ويفشلون عمداً في كل اختبار، لا تعلم شمالهم ما تنفق يمينهم، وكأنهم يسخرون من المنافقين الظلمة ويستهزئون بهم. هؤلاء وهبوا أنفسهم للناس ويضيفون البسمة للحياة وإن كانت اللعبة لعبة خطيرة وشرسة. اللعبة كالتالي: لو أخبرتك أني مريضٌ نفسي فستصدق ذلك، لو أخبرتك أني خبير في النفسيات ستفكر كثيراً. لو أخبرتك أني فعلت ذلك الشيء من أجل المصلحة الشخصية فلن تشك في كلامي ولكن لو أخبرتك أنه من أجلك فستسأل داخلك ألف سؤال. لو أبديت لك لحظة أني أخونك فستصدق ذلك لو أبديت لك عشر سنين أني مخلص لك فلربما لن تعتبر ذلك، أنه لأمر مضحك ما أسهل خِداعك. ليس هذا وحسب بل أنت تفضح نفسك نوعاً ما لأن كلاًّ يرى الناس بعين طبعه، ولكن المشكلة لو كنت تعرف هذه القاعدة مسبقاً فستزيدني جنوناً وأكون أنا الذي أفضح نفسي، ولكن ماذا لو أني أعرف أنك تعرف هذه القاعدة، وماذا لو أنك تعرف أني أعرف أنك تعرف هذه القاعدة، وهكذا. إن العلاقة الإنسانية ليست كالميكانيكا بل أكثر تعقيداً لأن كل شيء هو سلاح ذو حدين، عندما تختبر الناس أنت تختبر نفسك أيضاً، عندما تمكر فأنت تمكر على نفسك، وعندما تحرج غيرك فأنت تحرج نفسك وعندما تجود فأنت تجود على نفسك، إن ما تزرعه ستحصده لامحال.

وأخيراً، لا ننسى أن مساجد الضرار كانت ومازالت موجودة، ولربما أغلب المساجد اليوم ويالأسف مساجد ضرار، لأن أهل المسجد يضرون بالحي ويتكبرون في الأرض، أخلاقهم سيئة ووجوههم عبسة ولهم توجهات حزبية، ويستخدمون المسجد في الدعاية السياسية ويستغلون الأطفال في ذلك ويؤذون الناس. حديث وجده الكاتب بالصدفة واعلم أنه من النادر لو أن أحداً سمعه في درس فقه أو خطبة مسجد، «أكثر منافقي أمتي قراؤها» حديث حسن صححه الألباني. وذلك أيضاً أمر طبيعي كذلك، فأين سيكون أغلب المنافقين؟ موظفين في الحانات وبيوت الدعارة! لا، فهؤلاء

كفار (مجازاً). ستجد أغلب المنافقين ما بين الأئمة والقسيسين. ولذلك فإن الإمام والراهب الصادق يعاني الأمرين ويُحارب وأي محاربة من زملائه، كان الله في عون الجميع.

مراجع:

Bob Marley - No Women No Cry.

Immortal Technique - Dance With The Devil.

الفصل الثالث عشر
أهم اختراعات البشرية

اللغة والكتابة والشطرنج والإنترنت من أهم اختراعات البشرية. وأما الإنترنت وبجانبها العولمة فقد جعلتنا العالم قرية واحدة وكما ذُكر فإن الناس فيهم الخير بطبعهم ولكن يملؤهم الخوف بعضهم من بعض وينقصهم التواصل. والإنترنت تأكل الفراغ العنصري بين الناس رويداً رويداً بالإضافة للفوائد الخدمية والمعلوماتية. الإنترنت أشبه بما يكون بالمهدي المنتظر لأن الإنترنت ومع عامل الوقت ستملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً. والعولمة ليس المراد بها العولمة الرأسمالية بل أن يكون العالم ثقافياً قرية واحدة حينها لن يكون هناك مجال للشيطان أن يندس أو يهرب ولا مجال للشر أن يندس ويجتمع، وسيأتي يوم يظهر أن الأصل في الناس الخير وإن بدا غير ذلك من كثرة الحروب والفقر والفتن.

وأما الشطرنج فيضاعف نسبة الذكاء ويعلم طرق التفكير الاستراتيجي والتواصل الاجتماعي بشكل رائع، وهو والكوتشينة رائعان لترتيب الأفكار والفهرسة فمثلاً لو أردت أن أفهرس فلسفتي باستخدام الكوتشينة فستتكون من أربع فصول كالآتي:

♠ كاله/القُبلة

♦ شوكت/الإرث

♣ شيريا/الحلم

♥ لال/الفن

وكل فصل يتكون من 13 ورقة:

- التصوف - الشايب
- الإحياء - البنت
- الصراحة - الولد
- حسن الظن بعشر أوراق

وبالإضافة لجوكرين هما:

- تأثير الفراشة
- قطة شرودنجر

مراجع:

Common - Play Your Cards Right.

الفصل الرابع عشر
قطة شرودنجر

هناك تجربة علمية تخيلية تسمى قطة شرودنجر (Schrodinger's Cat) وهي وللتبسيط وضع قطة في صندوق عازل وداكن تماماً، فيه غاز سام ونردان يُرميان أوتوماتيكياً بحيث لو كان المجموع ستة أو أقل يُطلق الغاز أوتوماتيكياً وتموت القطة بينما لو كان المجموع أكثر من ستة لا يُطلق الغاز وتعيش القطة.

بعد رمي النردين لا أحد يعلم ماذا جرى للقطة المسكينة فهي في حالة الموت/حياة، حالة بينية شبحيه. فإذا فتحت الصندوق فستنتقل القطة من حالة الموت/حياة إلى حالة الموت أو العكس وهو حالة الحياة. وبهذا نستنتج أن النظر يؤثر على الواقع، والمراقبة تؤثر على الحالة وهو ما يعرف بتفسير كوبنجهام (Copenhagen interpretation). كذلك فإنك عندما تراقب شخصاً ما فإن مراقبتك تؤثر عليه، فالله وحده من له الحق في أن يحكم علينا، وكلنا ومهما بلغ إعجابنا بشخص ما فإنه يعيش على الستر، فأرجو لي ولكم الستر إنه هو الستار الغفور.

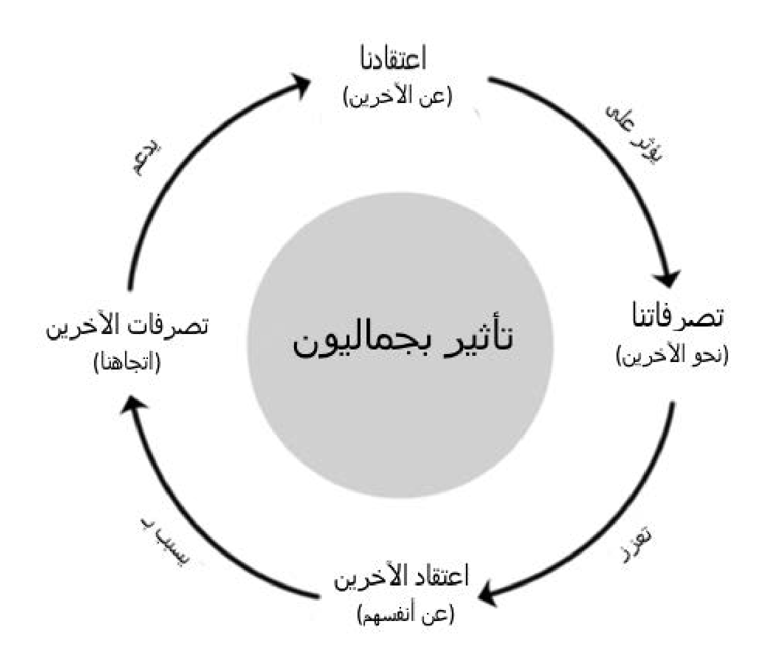
إن الغرض من هذه التجربة تسهيل شرح نظرية الكم، ونظرية الكم وإن كانت أساساً للعديد من التطبيقات الفيزيائية والاختراعات إلا أنه يصعب استيعابها فلسفياً وكأنها نوع من السفسطة وترجعنا لقول بروتاغوراس: «إن الأشياء تكون حقيقية متى ما أمكن للإنسان رؤيتها ولمسها أو ممارستها عن طريق حواسه». فالمعرفة عنده لا تتعلق بالموضوع فحسب بل بالذات العارفة أيضاً، ومبادئ الأشياء ينبغي ألا تُطلب في العالم الخارجي وإنما من داخل الإنسان. فالمبدأ الحقيقي ليس العناصر المادية كما اعتقد الفلاسفة الأوائل بل عقل الإنسان ذاته. ويُذكر أن بروتاغوراس كان أول من قال إنه يمكن إعطاء رأيين متناقضين في الشيء الواحد.

إذاً كل الناس وكل شيء في حالة الما بين، لا يوجد عاقل ولا مجنون، ولا عدو مطلق ولا صديق مطلق فحتى من تعتبره عدوك قد يتمنى لك الخير ولو للحظة وحتى صديقك قد يخونك في أشد اللحظات. فلا تجعل حياتك في يد صديق ولا عدو، بل ستجد عزيزي القارئ عدوك الحقيقي في آخر الأماكن التي تبحث عنها. تعتقد أحياناً أن الكل يقف ضدك وأحياناً تحس أن الكل يقفون معك وكليهما صحيح، تجد نفسك أحياناً تكره الجميع وأحياناً تحب الكون ومن فيه وكليهما صحيح فلا تقلق. حتى حبيبك حبك فيه شيء من الكره، وعدوك عداوتك فيها شيء من الحب. أما ترى أنك تتبع عدوك وتعاند حبيبك. وأحياناً تجد أن الكل مهتم بك وكأنك مركز الكون وأحياناً تجد أن لا أحد يلقي لك بالاً. الكل يحبني والكل يكرهونني، الكل ينافقني وأنا أنافق الجميع. وهذه الدنيا التي نعيشها هي جنة وهي نار في ذات الوقت وهنا يكمن جمالها. أنت كل شيء وأنت لا شيء واجتماع النقيضين قد يكون ممكناً. كما ورد في قصة القطة فعندما تختبر شيئاً أنت تؤثر عليه وتحوله بوعيك وبناء على معرفتك وخبراتك فيتحدد هل هو عدو أم صديق، وهل هذه جنة أم نار وهكذا.

إن مراقبة الناس والبحث عن أخطائهم والتحدث في ظهورهم من أسوأ الأشياء وليس له سبب فكلنا لدينا أخطاء وكلنا نعيش على ستر الله الجميل ومن كان بلا خطأ حل له رجمي بحجر. وأحذر من رمي الناس بالصفات فلو وصفت فلاناً بالجبن فأنت أعلم بالجبن وأستاذ فيه وإذا وصفته بالشجاعة فأنت عالم بالشجاعة، تماماً كمن يردد أغنية راب مع المذياع بحيث يقول المغني أنا أفضل الكل فليحذر الباقون لو تحديتموني فستموتون، وأنت تردد مع أصدقائك في السيارة أنا أفضل الكل فليحذر الباقون لو تحديتموني فستموتون، أنا أنت وأنت أنا والناس مرآتك.

ليس هذا وحسب بل وكما يشرح علم النفس، وخصوصاً في ما يسمى بتأثير بجماليون (Pygmalion effect). وبجماليون كما في الميثولوجيا الإغريقية كان نحاتاً عظيماً ولكنه كان يكره النساء، وصنع تمثالاً ذات يوم من العاج يمثل امرأة جميلة وكانت تحفة في غاية الروعة وألبسها أجمل الملابس والحلل وأخذ يتأملها ويحدثها حتى وقع في حبها رويداً رويداً وزادها على الحديث قُبل. ثم دعا الآلهة أن تحييها فاستجابت له وتحقق له ما صبا إليه. والمقصود به في علم النفس أنه عندما تعتقد أن فلاناً بخيل وتعامله كذلك فإنه ولاشعورياً يميل لتنفيذ رغباتك وعدم صدك ومعاملتك ببخل. وأما لو اعتقدت أن فلاناً كريم وعاملته كذلك فلن يردك وسيميل للتعامل معك بكرم، وهكذا في كل الصفات. وكأن خليلك قطعة من العاج أو الصخر المصمت وأنت الذي شكلته ونحته، وكأن علم النفس يشرح فيزياء الكم، والكلام يوافق أيضاً ما ورد سابقاً أن العلاقات الإنسانية أكثر

تعقيداً من الميكانيكا وأنها سلاح ذو حدين، فصديقك هو قطة شرودنجر وأنت قطة شرودنجر بالنسبة لصديقك وأنك حينما تختبر صديقك فأنت في نفس الوقت تختبر نفسك وحينما تكرمه فأنت تكرم نفسك، وأنتما تؤثران أحدكما على الآخر.



مراجع:

Tupac - Never Had a Friend Like Me.

Ice Cube - I Rep That West.

Massive Attack ft. Mos Def - I Against I.

الفصل الخامس عشر

الخلود أم الفناء

الخلود وبكل بساطة معناه الألوهية، فلو أن فلاناً خلد في الجنة وبينما هو في الجنة على افتراض أنه يتعلم معلومة واحدة فقط كل يوم فسيكون علمه لانهائياً أي علماً مطلقاً ولو زاد حبه كل يوم مقدار ذرة لصار حبه مطلقاً ولانهائياً. ولذلك يرى الكثير من شيوخ الصوفية أن المؤمن نعيمه بأن يتحد مع الله كقطرة رجعت للمحيط وأن لله المنتهى والرجعى. والمشكلة ليست هنا وإنما لو خلد أحد في النار فسيكون ألمه لانهائياً وحقده لانهائياً ولو تعلم كل يوم معلومة فسيكون علمه لانهائياً. وتلك مصيبة ومعضلة فلسفية، إذاً ماذا يحدث للروح بعد الموت؟

بعيداً عن الأجوبة الدينية لا أحد يعلم لأنه وببساطة لا يمكن التواصل مع الموتى ولا يوجد أحد رجع للحياة من بعد موت. ولكن يمكن الإجابة على ماذا سيحدث للجسد بعد الموت؟ فالجسد يتحلل وتنتشر ذراته في الأرض والتربة والكائنات الأخرى تتغذى عليه وتنتشر ذراته رويدا رويدا في كل الكون. والكون بذاته سوف يموت في يوم من الأيام بتفكك ذراته أو تداخلها لتصبح كثقب أسود عملاق أو بتصادمه مع كون آخر. ثم ينشأ كون جديد وولادة جديدة والروح قد تكون كذلك. وأما السؤال العاطفي الفلسفي الأصعب فهو: لو كان الأمر بيدك فهل ستختار الخلود أم الفناء؟

ولكن ماذا عن الوعي الإنساني والحب وكل هذه المشاعر؟ الوعي الإنساني لم يُفسر علمياً بعد، أقتبس للسيد توماس هكسلي (1823-1895): «كيف يمكن لشيء فريد ومميز مثل حالة الوعي أن تأتي من نسيج عصبـي مثار؟ إن هذا غير منطقي، تماماً كمثل ظهور جني عندما يحك علاء الدين مصباحه». هل سيعود الوعي بعد الموت يوما ما بنفس الشكل؟ أم بشكل آخر؟ أم أنه لن يعود؟ أم أنه لم يموت من الأصل؟ وهل صحيح أن كل ذرة في الكون لها وعي وليس فقط الإنسان

والحيوان؟ إن بيتك ربما لديه وعي ومدينتك والكمبيوتر والتفاحة التي حين تأكلها؛ فإن وعيكما يندمجان والكرة الأرضية لديها وعي والكون لديه وعي وهو ما يعرف بالناموس الإلهي أو سنة الكون أو سمه روح القدس أو الأنا العليا أو سمه ما شئت. أم أن الوعي ليس إلا وهماً من الأوهام فكلنا ليس بيننا أجزاء أو فواصل وأن الأنا ليست إلا نوعاً من الوهم وأن كلنا لله ولم ولن ننفصل عنه سبحانه وحاشاه.

الفصل السادس عشر
تأثير الفراشة

رأيت نصف المجتمع يعتقد ويتصرف وكأنه المهدي المنتظر أو أنه محرك الكون أو أن الناس جميعاً يتآمرون عليه والدنيا تدور حوله كما يقال. والنصف الآخر تعدوا هذه المرحلة ولكنهم يتلاعبون في عقول النصف الأول. وأيضاً نصف المجتمع وخاصةً النساء تظل تنظر في المرآة ساعة تظن أنها أجمل نساء الدنيا وساعة غير ذلك. ويبدو أن البشر وربما الكائنات الحية ككل، التفكير المركزي هو السائد لديهم فلآلاف السنين كان البشر يعتقدون أن الأرض مركز الكون وأن الأرض ثابتة والشمس والنجوم تدور حول الأرض.

حتى الذي ليس لديه الاعتقاد أنه المهدي المنتظر ستجد عنده اعتقاداً أنه يملك شيئاً لا يملكه الآخرون كمن أطلعه أبوه على سر فظن أنه الوحيد في العالم الذي يملكه. بينما هناك الآلاف من الآباء أو ربما الملايين أطلعوا أولادهم على نفس السر، وهناك من يعتقد أنه الوحيد من يملك أحد الأفكار وكأنه ملك كنوز سليمان بينما أغلب الناس يملك نفس الفكرة وربما تجاوزها أيضاً. أَذكر تلك الفتاة التي كانت تعمل معي في نفس المؤسسة وكانت تبدو قليلة الجمال من النظرة الأولى ولكنها مليحة بعض الشيء وروحها حلوة وثقتها في جمالها ضعفيه بعض الشيء، كنت أراقب الموظفين الشباب كل شخص كان يعتقد أنه الوحيد الذي يرى جمال هذه الفتاة وأنها فرصة مثالية لم ينتبه إليها أحد وهي ودودة تعامل الجميع بحسن المعاملة فيظن الشخص أنها تتودّد إليه سراً وهكذا. وإذا ما انتبه يوماً من الأيام أن الجميع مثله يتوددون ويملكون نفس التفكير، ظن أنه العاقل الوحيد الذي فهم سر الفتاة، وأن الفتاة لاحظت ذلك فيه فيقع في حبها أكثر. حقاً لقد كانت فتاة بروح ملائكية.

إن الفكر المهدوي لا يفيد إلا في تعظيم الأنا ومرفوض حتى من قِبل علماء دين وهو كفكرة الأبطال الخارقين عند الأمريكان أو ما يسمى بالسوبرمان، على عكس الفكر الأوربـي الذي يرى أن المعجزة هي أن ليس هناك معجزة، وأن السر هو أن ليس هناك سر، وأن المجتمع سيرتقي بالمحبة والشجاعة والنظام.

ولكن تفكيرك بأنك المهدي له أساس علمي ولَم يأتِ من فراغ فبناءً على ما يسمى بنظرية تأثير الفراشة (Butterfly Effect)، وهو مبدأ فيزيائي ينص على أن رفرفة جناحي فراشة صغيرة في الصين قد تُسبب إعصاراً في غابات الأمازون في أمريكا الجنوبية. فعندما تذهب لتشجيع فريقك المفضل فأنت تؤثر على من حولك من الجمهور وتؤثر في نتيجة المباراة سلباً أو إيجاباً. والمباراة قد تؤثر على بلدك اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، وبلدك يؤثر على العالم. وعندما تشاهد التلفاز فإنك تؤثر عليه فعلياً وليس هلوسةً وذلك من خلال زيادة نسبة المشاهدة والتي بدورها تؤثر على إتخاذ القرار في المؤسسات الإعلامية، وهو ما يعرف في الإعلام بردة الفعل أو التغذية الاسترجاعية. وأنه عندما سقط مسمار الحدوة سقطت الحدوة وعندما سقطت الحدوة تعثر الحصان وعندما تعثر الحصان أصيب الفارس وعندما أصيب الفارس لم تصل الرسالة التي كان يحملها وعندها ضاعت المعركة فضاعت المملكة. «فلا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق».

إذاً أنت الفراشة التي تؤثر على الكون، أنت سبب الخير وسبب الشر، أنت الماضي والمستقبل، أنت المسؤول الأول عن نفسك وعن كل شيء، فيك حلت الأكوان، أنت المحرك الأول وأنت كل شيء كما ورد عن الإمام علي كرم الله وجهه:

«دواؤك فيك وما تُبصر   وداؤك منك وما تَشعر

وَتزعم أنك جرمٌ صغير   وفيك انطوى العالمُ الأكبر»

مراجع:

Mr. Nobody - 2009.

The Butterfly Effect - 2004.

الفصل السابع عشر
المصفوفة

في الجانب الآخر لا تنسَ أن هناك فراشات أُخر يؤثرن عليك واعلم أن كل شيء مقدر ومكتوب. لست من اختار اسمك ولا جنسك ولا مدرستك ولا أصدقاء الطفولة ولا والديك وأهلك ولا تعطل سيارتك اليوم والذي عدل برنامجك اليومي بالكامل ولا شكلك ومظهرك. ولا أنك إنسان ولست قطة، وأن الجزء الأكبر من شخصيتك قد تكون قبل أن تبلغ العاشرة، وجسدك يحتوي على البلايين من البكتريا التي تتحكم بك وبمزاجك، حتى جاذبية القمر تؤثر عليك وعلى مزاجك، والأبراج حقيقة تؤثر عليك نوعاً ما، وكل ذرة في الكون تؤثر عليك بشكل مباشر أو غير مباشر. حتى أبناؤك الذين تظن أنك تربيهم وتسيطر عليهم تقترح الدراسات الحديثة أنه هم الذين يربونك ويؤثرون في نمط حياتك. سعادتك تنتج وبشكل رئيسي بسبب هرموني الدُوبَامين السِّيرُوتونِين، وموقف صغير أو حركة مقصودة أو غير مقصودة تؤثر في شخصيتك وحياتك لعشرات السنين. ولم تختر لا دينك ولا وطنك في الغالب ولم تختر لونك ولا شكل رأسك الذي يبدو كالبطيخة، ولا ابتسامة زوجتك التي تعرفت عليها بالصدفة والتي تبدو اليوم هادئة لأقدار مرت بها لا تعلمها ولكنها هدأت من روعك، ولولا القدر لكان كل شيء مملاً. فالطريقة الوحيدة لتنال الحرية هي أن تؤمن بأن كل شيء مقدر ومكتوب وأنك لست إلا ريشه في مهب الريح. وهي الحبة الحمراء في فلم الماتركس، فعلمك أننا لا نملك قرارات أنفسنا يحررك. والقرار الوحيد الذي قد تملكه نسبياً هو الانتحار وإنهاء حياتك ليتوقف مخك عن التفكير وجسدك عن الاستجابة.

وحتى نوفق بين هذا الفصل والسابق فإن فلسفة القدر أشبه ما تكون بفلسفة جان جاك روسو (1712-1778) عن العقد الاجتماعي. فهو يرى «أن كل فرد في الدولة حاكم لأنه عضو في الجسم

السياسي صاحب السيادة، وفي نفس الوقت محكوم بطاعته للقوانين التي سنها الجسم السياسي بالإرادة العامة، والإرادة العامة تهتم بالصالح العام». كما أن أغلب حوادث السير تحدث عند التقاطعات المتساوية، لأن كل سائق يظن أن خطه هو الخط الرئيسي والخط الآخر هو الفرعي فلا يبطئ كثيراً ويظن أن الطرف الآخر سيبطئ من أجله، بينما في الحقيقة خطّا التقاطع متساويان وسعاً.

مراجع:

Tupac - Me Against The World.

The Matrix trilogy, The Animatrix - (1999 - 2003).

الفصل الثامن عشر

الهلاوس

أترككم مع ترجمة لجزء من محاضرة بعنوان (What Hallucination Reveals About Our Minds) للدكتور أوليفر ساكس: نحن نرى بأعيننا ولكننا نرى بعقولنا أيضاً، والرؤية بالعقل عادة ما تدعى التخيل. ونحن نألف المناظر الخاصة بخيالنا، خيالاتنا الداخلية، فنحن نعيش معها طوال حياتنا. ولكن هناك أيضاً ما يدعى بالهلوسة، والهلوسة مختلفة تماماً، فهي لا تبدو من صنعنا نحن كالتخيل. ولا تبدو تحت سيطرتنا بل تبدو وكأنها آتية من المحيط الخارجي، وتبدو وكأنها تسخر من إدراكنا أيضاً.

هناك نوع معين من الهلوسة سوف نتحدث عنه لشرح موضوع الهلاوس. منذ بضعة أشهر جاءني اتصال هاتفي من دار للمسنين أتعاون معه. أخبروني أن إحدى المقيمات هناك، سيدة عجوز في التسعينات من عمرها، ترى أشياء. وتساءلوا إذا ما قد جنت، أم انه بسبب التقدم في العمر أصابتها جلطة أو أصابها مرض الزهايمر. وسألوني إذا كان في استطاعتي المجيء لرؤية روزلي، وروزلي هو اسم السيدة.

ذهبت لرؤيتها وكان واضحاً على الفور أنها عاقلة تماماً وصافية الذهن وذكية بدرجة جيدة ولكنها كانت مذعورة ومحتارة لأنها ترى أشياء. ثم أخبرتني - والممرضات لم يذكروا ذلك من قبل - أنها عمياء تماماً نتيجة ضمور بقعي للشبكية منذ خمسة أعوام. ولكن الآن ومنذ عدة أيام فإنها أصبحت ترى أشياء. فسألتها «أشياء مثل ماذا؟» فقالت: «أرى أشخاصاً في ملابس شرقية يصعدون وينزلون السلالم ورجلاً يتلفت نحوي ويبتسم ولكن أسنانه ضخمة في جانب واحد من فمه. وأرى حيوانات أيضاً، ومبنى أبيض وأن ثلجاً خفيفاً يتساقط من السماء، وأرى حصاناً مسرجاً يجر الثلج

بعيداً. ثم وفي إحدى الليالي تغير المنظر، فأصبحت أرى قططاً وكلاباً تسير نحوي حتى نقطة معينة ثم تتوقف. ثم تغير المنظر مرة أخرى، فأصبحت أرى العديد من الأطفال يصعدون وينزلون السلالم، يرتدون ألواناً براقة زرقاء وزهرية كالملابس الشرقية». أحياناً وكما قالت، قبل أن يظهر الأشخاص كان يهيأ لها وجود مربعات وردية وزرقاء على الأرض، وتبدو وكأنها تمتد إلى السقف. سألتها: «وهل كل ذلك كحلم؟» فقالت: «لا ليس كحلم بل كفيلم، هناك ألوان وهناك حركة ولكنه صامت تماماً، كفيلم صامت». وقالت: «إنه أقرب إلى فيلم ممل، كل هؤلاء الأشخاص بالملابس الشرقية يصعدون ويهبطون، الأمر مكرر للغاية، محدود للغاية».

حقاً إن روحها مرحة، كانت تعلم أنها هلاوس ولكنها كانت خائفة. لقد عاشت خمساً وتسعين سنة ولم ترَ هلوسات من قبل. وأضافت إن تلك التهيؤات غير مرتبطة بأيٍ مما كانت تفكر أو تشعر به أو تفعله. وكانت تأتي وتختفي دون سبب وليس لديها أي سيطرة عليها، وأنها لم تكن تعرف مسبقاً أي من الأشخاص أو الأماكن أو الحيوانات الذين ظهروا في الهلاوس كما أنهم كانوا جميعاً يتجاهلونها وكأنهم لا يرونها. ولم تكن تعلم ما الذي يحدث لها وتساءلت إن كانت على طريق الجنون!

لقد فحصتها جيداً، كانت سيدة عجوزاً ذكية متألقة، عاقلة تماماً ولم يكن لديها أي مشاكل طبية. ولم تكن تتناول أي أدوية تسبب الهلوسة، ولكنها كانت عمياء. فقلت لها: «أعتقد أني أعرف ما أصابك. هناك نوع خاص من الهلاوس البصرية التي قد تصاحب تدهور الرؤية أو العمى، وهو ما تم وصفه في الأصل قديماً منذ القرن الثامن عشر من قبل رجل يدعى تشارلز بونييه، وأنت لديك متلازمة تشارلز بونييه (Charles Bonnet Syndrome). لا يوجد ما هو خطأ في دماغك أو عقلك، وكل ما في الأمر أنك مصابه بمتلازمة تشارلز بونييه». وكم ارتاحت عند سماعها ذلك، وعلمت أنه ليس بذاك الأمر الخطر، وكانت أيضاً فضولية. قالت: «من هو تشارلز بونييه هذا؟ وهل أصابته الهلاوس أيضاً» ثم قالت: «أخبر جميع الممرضات أن ما أصابني هو متلازمة تشارلز بونييه، أنا لست مجنونة ولم يصبني العَته، لدي فقط متلازمة تشارلز بونييه». وقد فعلُت ذلك وأخبرت الممرضات.

إن هذا الموقف مألوف بالنسبة لي، فأنا أعمل كثيراً بدور المسنين وأرى الكثير من المسنين الذين إما ضعاف سمع أو ضعاف بصر. وحوالى 10% من ضعاف السمع تصيبهم هلاوس موسيقية

وكذلك حوالى 10% من ضعاف البصر تصيبهم هلاوس بصرية، وليس من الضرورة أن يكون العمى تاماً، فقط ضعف البصر بشكل محدّد كافٍ.

وأما عن الوصف الأصلي في القرن الثامن عشر، تشارلز بونييه لم يكن يرى هلاوس ولكن جده كان يراها. جده كان قاضياً ورجلاً مسناً وكان قد خضع لجراحة الساد (Cataract surgery) مما جعل بصره ضعيفاً بصورة كبيرة. وفي عام 1759 وصف لحفيده أشياء متعددة كان يراها. وأول شيء قال إنه رآه هو منديل ورقي معلق في الهواء، منديل كبير أزرق اللون بأربع دوائر برتقالية، وكان يعلم أنها هلوسة، فلا توجد مناديل تطير في الهواء. ثم رأى عجلة كبيرة معلقة في الهواء. ولكن في بعض الأحيان لم يكن واثقاً إن كان يهلوس أم لا، لأن الهلاوس كانت أحياناً تتماشى مع الواقع وفي سياق ما يراه. في إحدى المناسبات وأثناء زيارة حفيدته له قال: «ومن هؤلاء الشبان الوسيمون الذين معك»، فقالت: «جدي، لا يوجد شبان حولنا». فاختفوا، وهذا أمر طبيعي إذ إن الهلاوس تأتي في ومضة وتختفي في ومضة، فهي لا تأتي وتذهب تدريجياً. هي في الغالب مفاجأة، وتتغير فجائياً أيضاً.

تشارلز لوند الجد، رأى المئات من الأشكال المختلفة، مناظر مختلفة من كل الأنواع. في إحدى المناسبات رأى رجلاً في مئزر الحمام يدخن الغليون، ثم أدرك أن هذا الشخص ماهو إلا نفسه - وكانت هذه هي الشخصية الوحيدة التي يعرفها مسبقاً- وفي مناسبة أخرى وهو يمشي في شوارع باريس رأى سقالات، وكان ذلك حقيقياً. ولكنه عندما عاد إلى المنزل رأى نموذجاً مصغراً من تلك السقالات بعلو ست بوصات على مكتبه، وهذا التكرار في المشهد يسمى أحياناً بالنوبسيا (Palinopsia).

في حالته وفي حالة روزلي، يبدو أن الذي يحدث معهما، وروزلي قد سألت من قبل «ما الذي يحدث لي؟». فذكرت لها أنه أثناء فقد البصر وحيث إن مناطق الرؤية في المخ لم تعد تصلها أي مدخلات تصبح تلك المناطق مفرطة في النشاط ومتحفزة وتبدأ بإطلاق الصور بشكل تلقائي فتبدئين في رؤية الأشياء، والأشياء التي ترينها من الممكن أن تكون حقاً معقدة وللغاية.

مع إحدى مريضاتي الأخريات، والتي كان لديها أيضاً بعض الرؤى، والرؤى التي تراها قد تكون مزعجة. في إحدى المناسبات قالت إنها رأت رجلاً يرتدي قميصاً مقلماً في مطعم وكان يلتفت إليها ثم انقسم إلى ستة أشخاص جميعهم يرتدون قمصاناً مقلمة. وبدأوا في الاتجاه نحوها، ثم تداخلت

الأجسام الستة مرة أخرى كآلة الأكورديون الموسيقية. وذات مرة، وعندما كانت تركب السيارة انقسم الطريق إلى أربعة أقسام وشعرت كأنها تمضي في الأربعة طرق في ذات الوقت. كانت هلوساتها تتصف بالحركة والكثير منها له علاقة بالسيارة. في مره من المرات رأت فتىً مراهقاً يجلس على غطاء محرك السيارة، وكان متماسكاً جداً ويتحرك بشكل رشيق بينما تنحرف السيارة. ثم عندما توقفوا، إذ بالفتى يرتفع فجأة بشكل عمودي إلى ارتفاع 100 قدم في الهواء ثم يختفي.

مريضة أخرى لي كانت تعاني من نوع آخر من الهلاوس، كانت امرأة لا تعاني من أي مشاكل في عينيها ولكن كانت المشكلة في مناطق الرؤية في المخ، ورم صغير في قشرة مؤخرة المخ. والمهم هنا، أنها كانت ترى رسوماً متحركة، رسوم شفافة وتغطي نصف مجال الرؤية وكأنها شاشة عرض، وكانت ترى بشكل خاص ضفدع كامل (Kermit the Frog). وأنا لا أشاهد برنامج شارع السمسم ولكن كان لديها نقطة منطقية وهي «لماذا ضفدع كامل؟ ضفدع كامل لا يعني الكثير بالنسبة لي!». وكنت أتساءل وقتها عن محددات فرويد ولماذا بالذات ضفدع كامل على الرغم من أنه لا يمثل أي شيء مهم بالنسبة لها.

لم تكن الرسوم المتحركة تزعجها كثيراً ولكن ما أزعجها حقاً أنه كانت تصيبها هلاوس وصور ملحة لوجوه، وكما مع روزلي، الوجوه كانت مشوهه بأسنان كبيرة جداً أو عيون كبيرة جداً وقد أخافوها. إذاً ما الذي يحدث مع هؤلاء المرضى؟ بصفتي طبيباً يجب أن أحاول وأضع تعريفاً لما يحدث. وأن أطمئن الناس وأؤكد لهم بشكل خاص أنهم ليسوا بمجانين.

وكما قلت: حوالى 10% من ضعاف البصر تصيبهم تلك الهلاوس ولكن بالكاد 10% من هؤلاء يصرحون بذلك، لأنهم خائفون أن يُنظر إليهم بصفتهم مجانين أو شيء من هذا القبيل - وحتى لو ذكروها لأطبائهم الخاصين فمن الممكن أن يخطئوا في التشخيص - وخصوصاً أن المفهوم العام أنه إذا كنت ترى أو تسمع أشياء إذاً فأنت في طريقك إلى الجنون.

ولكن الهلاوس النفسية مختلفة بعض الشيء. الهلاوس النفسية سواء بصرية أو سمعية تخاطبك مباشرة وتحكم عليك، تغويك، تهينك وتسخر منك، أنت تتفاعل معها. وأما خاصية التوجيه ومخاطبة النفس فلا توجد في هلاوس متلازمة تشارلز بونييه، هناك فيلم فقط، فأنت ترى فيلماً لا علاقة له بك إطلاقاً أو هذا هو على الأقل وصف المرضى له.

وهناك أيضاً مرض نادر يُدعى صرع الفص الصدغي (Temporal Lobe Epilepsy). وأحياناً حين يصاب الفرد بهذا المرض، قد يشعر أنه ينتقل رجوعاً إلى وقت ومكان في الماضي فترى نفسك في تقاطع طرق معين، أو تشم رائحة شوي الكستناء، وقد تسمع أصوات زحام الطرق. كل الحواس معنية، فها أنت منتظراً فتاتك، في ليلة الثلاثاء تلك في عام 1982. وهلاوس الفص الصدغي هي هلاوس تصيب جميع الحواس وهي مليئة بالإحساس، مليئة بالإلفة، موجودة في مكان وزمان، مترابطة، درامية بينما هلاوس تشارلز بونييه ليست كذلك، انتهى الاقتباس.

إذاً فإنه، وكما ورد، فإن الهلاوس البصرية في متلازمة تشارلز بونييه وفي الغالب يسهل التعرف عليها، أي أن الشخص يعرف أنه يهلوس، وعند التعرف على الهلاوس فقد حُلت تسعة أعشار المشكلة. وأما عن كيفية معرفة أنها هلاوس فهناك طريقة واحده لا غير وهي المنطق. فكما ورد إن جد تشارلز بونييه كان يرى منديلاً كبيراً معلقاً في الهواء وكان يعلم أنها هلاوس لأنه يستحيل على المنديل أن يطير في الهواء. ولكن عندما يأتي الأمر للهلوسة النفسية وخصوصاً الاجتماعية أو الأوهام كمن يعتقد أنه المهدي المنتظر أو من يعتقد أنه تم استبدال عائلته بعائلة أخرى عندما كان طفلاً أو أن كائنات فضائية تتحكم بعقله أو تتحدث إليه بشفرات مخفية تبث في قنوات التلفاز والصحف أو أن الموساد الإسرائيلي يراقبه. فمثل هذه الهلاوس يصعب معرفة أنها هلاوس عن طريق المنطق على عكس حالة المنديل الطائر، بل هناك احتمال وارد وإن كان في غاية الضآلة بأن هذه ليست هلاوس بل صحيحة واقعاً أو صحيحة جزئياً ولو بشكل بسيط (ملاحظة: المهدي المنتظر الحقيقي سيكون عاقلاً عندما يعتقد أنه المهدي المنتظر ومهلوساً حين يعتقد أن شخص عادي)، فنفيها بالمنطق أمر في غاية الصعوبة والتعقيد. لذلك فهي وكما ورد، تتحكم فيك وتسخر منك وقد تدمر حياتك لأنك تعتقد أنها حقيقة وليست هلاوس، ومن أجل ذلك كتب الكاتب هذا الكتاب.

وكانت الفكرة الأولى لهذا الكتاب قد أتت من فيلم: عقل جميل (A Beautiful Mind)، والمبني على قصة حقيقية بأن البطل والذي كان أستاذاً جامعياً مرموقاً ولكنه صار يعتقد أن المخابرات الروسية تراقبه وأن الشيوعيين يدبرون لمؤامرة ويتخاطبون سرياً بشفرات في الصحف، وكان يرى عدة هلاوس ومهما حاول أصدقاؤه وأهله إخباره أنها هلاوس فلم يصدق أحداً (وهذا طبع من يهلوس)، حتى استطاع يوماً ما أن يتأكد أنها هلاوس بسبب بسيط وهو أن أحد الشخصيات التي كان يراها وهي فتاة صغيرة، لا تكبر مع مرور السنين ولا تتقدم في العمر.

إذاً السؤال التالي الذي يطرح نفسه هو كيف تنشأ هذه الهلاوس؟ وكيف يمكن لشخص اجتماعي وذكي فجأة أن يصبح مجنوناً؟ العامل البيولوجي أساس ومعتبر ولكن كيف يكون الأمر من ناحية نفسية؟ لفهم ذلك عزيزي القارئ فلنشرح أولاً شيئاً مشابهاً ولكنه أبسط وهو الخداع البصري، والرابط بين الهلاوس والخداع البصري هو رؤية أشياء غير حقيقية. الخداع البصري يعتمد على أن الإنسان لا يرى كل التفاصيل والأحداث الدقيقة في المحيط (لأن ذلك فيه جهد كبير على الدماغ ولعدم أهمية بعض الأشياء، وكذلك لأن العين فيها قصور في بعض النواحي) ولكنه يصنع نوعاً من اللوغاريتم ليسهل المهمة وليملأ النقص في الصورة. الخداع البصري يتسلل من خلال نقاط القصور في العين ومعرفة اللوغاريتمات البصرية ليخدعها ويوهمك برؤية شيء ليس موجوداً حقيقة أو يخفي عن عينك شيئاً حقيقياً موجوداً أمامك. كذلك التفكير المنطقي فإن الإنسان لا يحلل كل التفاصيل والأحداث الدقيقة في المحيط (لأن ذلك فيه جهد كبير على الدماغ ولعدم أهمية بعض الأشياء، ولأن المنطق الإنساني فيه نوع من القصور) ولكن العقل يصنع نوعاً من اللوغاريتم ليسهل المهمة وليملأ النقص ولكي يبدو كل شيء مريحاً ومنطقياً. الهلاوس النفسية تتسلل من خلال القصور الطبيعي في المنطق الإنساني وخداع اللوغاريتمات التفكيرية لتوهمك بشيء غير حقيقي أو تخفي عنك شيئاً واضحاً للعيان.

وبعبارة أخرى يمكن القول إن النقص أو النشاز في المنطق أو التصادم الداخلي أو تصادم فكرتين وهو ما يعرف في علم النفس بالتنافر المعرفي (Cognitive dissonance) يسبب حالة نفسية من عدم الارتياح وأن العقل مستعد ليملأ النقص المنطقي حتى ولو بالهلاوس والأوهام ليتحقق نوع من السلام الداخلي.

«الثعلب والعنب» قصة لإيسوب. عندما
يأس الثعلب من الوصول إلى العنب، اقنع

نفسه أن العنب ليس حلو المذاق.



يبدو أن أكبر خطأ يرتكبه الإنسان هو أن يثق بعقله وحواسه وذاكرته ثقة عمياء. إن الله الحق هو الذي يرى الكون على صورته الحقيقية أما الإنسان فإنه يرى انعكاس الكون أو صورة تقريبية مخلوطة مع أفكاره ومنطقه وخبراته. وإن الإنسان الطبيعي وعامة الناس وإن لم يكونوا يرون ما يعرف بالهلوسات فإن عندهم قصور في المنطق أو أوهام أو مغالطات منطقية على التسمية الأشهر، وإن هذه المغالطات مثبتة علمياً ونذكر منها:

- Spotlight effect: يميل الناس للاعتقاد أنهم ملاحظون أكثر من واقع الأمر، وأنهم محط الأنظار أينما كانوا. إن كل إنسان يهتم بنفسه كثيراً فيظن لاشعورياً أن الآخرين أيضاً مهتمون بشأنه وهذا الأمر يزيد من الضغط والقلق الاجتماعي على الإنسان. تخيل لو أنك كنت في حفلة وبعد مدة اكتشفت أن على قميصك بقعة، ستشعر بالإحراج الشديد وستظن أن الجميع ينظرون إلى البقعة وربما يتهامسون عنك. بينما في الواقع ربما أغلبهم لم يلاحظها ومن لاحظ لم يهتم كثيراً، وهكذا.

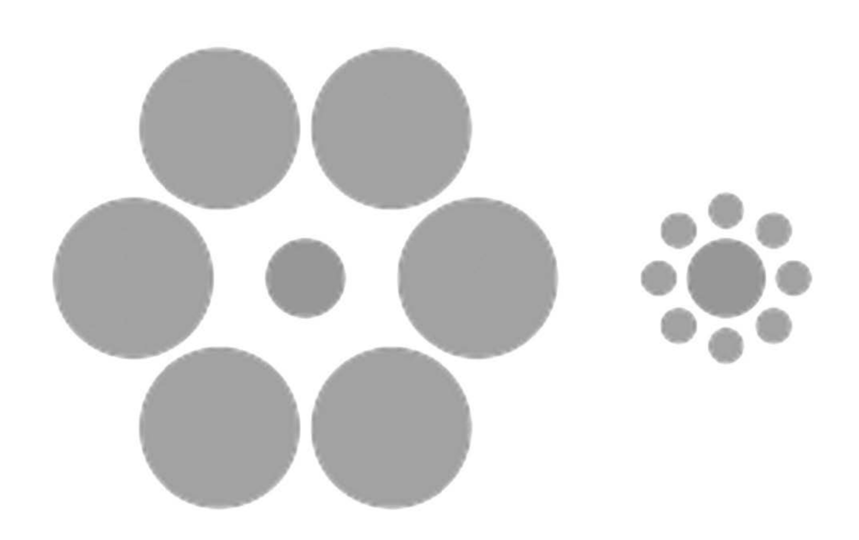
- The illusion of transparency: يميل الإنسان للاعتقاد بشكل مبالغ فيه أن أفكاره ومشاعره واضحة للجميع وأنهم يستطيعون قراءته بسهولة. ولكن في الحقيقة هو بعيد كل البعد عن الصواب لأنه يصعب قراءة الإنسان والتعرف على أفكاره دون تصريح منه وأيضاً للسبب السابق وهو أن أكثر الناس يهتمون بأنفسهم أكثر من الآخرين. مثال على ذلك بينما أنت في حفلة وقمت بتذوق أكلة مقززة لم تعجبك فستظن أن الكل لاحظ معك ذلك بينما في الحقيقة أنت الملاحظ الوحيد غالباً.

- Terrific effect: في دراسة أجريت في أحد الفصول الجامعية، سُئل الطلاب: هل تعتقد نفسك متميزاً دراسياً (فوق المتوسط) أو أنك أقل من المتوسط؟ وكانت الغالبية قد أجابوا أنهم فوق المتوسط، وهذا يعني خللاً في منطق الطلاب إذ إن النسبة الحقيقية يجب أن تكون نصف الطلاب فوق المتوسط والنصف الآخر أقل من المتوسط. يميل الإنسان للاعتقاد أنه أفضل مما هو عليه وأنه أروع وأفضل ممن حوليه.

- Sunk cost fallacy: إن الإنسان وخصوصاً عندما يبذل الكثير من الجهد أو المال أو العاطفة لشيء معين فإنه في غاية الصعوبة أن يقر أن هذا الشيء خاطئ. وأقرب مثال هو زواج فاشل، فمن النادر جداً أن يعتقد أحد أن سبب فشل زواجه هو أن زوجته لم تعد تحبه أو عدم توافقهما، ولكنه سيعتقد أنه مسحور أو أن أهل زوجته تآمروا عليهما. وكذلك الحال مع معتقد ديني تربى عليه من الأهل وفي المدرسة والمجتمع ومنذ الصغر.

والآن لتخلط المغالطات المنطقية السابقة - وهناك غيرها الكثير - وتضاعفها قليلاً وتضيف إليها عنصراً محفزاً (العنصر المحفز قد يكون مخدرات، أو حمى شديدة أو مرضاً يؤثر على الدماغ، أو سماع أصوات، أو حركة سحرية بهلوانية من صديق، أو صدمة عاطفية من وفاة أو فراق، أو افلاس أو سجن أو ضغوطات واكتئاب... وغيره)، ولنفترض أنه فجأة تغير عليك أصدقاؤك الذين كنت تحبهم جداً وكنت متعلق بهم عاطفياً والذين كنت تدخن معهم البانجو ولكن لم يعودوا يهتمون بك، وفي نفس الوقت كنت تمر بظروف صعبة وفراغ عاطفي واكتئاب. مع قليل من الخرافات الدينية والمغالطات المنطقية قد يفسر عقلك الأمر بأن الأصدقاء ما عادوا يهتمون بك

بسبب آخرين أو مؤامرة أو سحر أو قوة خفية، ثم سيبدأ عقلك يخبرك أن الأصدقاء ولأنهم لم يرجعوا للصواب فإنهم يتآمرون عليك، ثم إنهم يستعملون الشفرات للتحدث عنك، ثم يبدو أني مراقب ثم الحكومة ترسل لي شفرات عبر التلفاز، ثم أنا أتخاطر ذهنياً مع الناس وبوضوح، ثم الكل يعرف عني كل شيء، ثم يبدو أني أنا المهدي المنتظر ثم تذهب هلوسة ولو مؤقتاً وتأتي هلوسة أخرى، وتدخل في دوامة تستمر لعدة سنين من شيء خاطئ بسيط وهو أن الأصدقاء يتآمرون عليك ويستعملون الشفرات، وهكذا عزيزي القارئ وبدون مقدمات يصبح لدينا بما يسمى علمياً بمرض الفصام.



الدائرة بالمنتصف تبدو أصغر من الأخرى ولكنهم في الحقيقة متساوون

المشكلة وكما ذكر في المجنون أنه لا يثق بحواسة فقط بل بحدسه وبتخاطره الذهني أيضاً وبشكل مبالغ فيه ويساوي تخيلاته واستنتاجاته بالحقيقة، مثلاً العاقل قد يشك أن زملائه في العمل يتآمرون عليه. ولكن المجنون يظن أن ما يشك فيه حقيقة ويبني حول شكه قصراً عظيماً.

وفصام الشخصية ليس المراد به مرض تعدد الشخصيات كما هو مشهور بالأفلام، ولكن المراد به فصام الشخص عن الواقع. هو مرض يؤثر على طريقة التفكير ويُصاب به واحد من كل مئة شخص تقريباً. هناك اختبار بسيط يحدد مدى إمكانية إصابتك بمرض فصام الشخصية. أجب على الأسئلة التالية بنعم أو لا. هل تسمع أو ترى أشياء لا يراها أو يسمعها الناس؟ هل تجد صعوبة

في الوثوق في أن ما تفكر به حقيقي؟ هل تحس أو تظن أنه تتم متابعتك أو مراقبتك أو مشاهدتك؟ هل تحس أن آخرين يتحكمون في أفكارك ومشاعرك؟ هل تجد صعوبة في فعل الواجبات اليومية البسيطة؟ هل تعتقد أن لديك قوى لا يفهمها أو لا يقدرها الآخرون؟ إذا أجبت على اثنين أو أقل بنعم فلا تقلق كثيراً بشأن الفصام، أما إذا أجبت على ثلاثة أو أكثر بنعم فهناك احتمال وارد عزيزي القارئ أنك مصاب بالفصام.

مراجع:

The Truman Show - 1998.

Fight club - 1999.

Challenging - 2008.

Shutter Island - 2010.

Paul Bloom - Introduction to Psychology (Yale course).

Rolf Dobell - The Art of Thinking Clearly - 2013.

الفصل التاسع عشر
كهف أفلاطون

أمثولة الكهف لأفلاطون على قدر قِدمها، على قدر عبقريتها وبساطتها وحقيقتها في واقعنا وكذلك عمقها الفلسفي. في كتابه «الجمهورية» يتحدث أفلاطون على لسان سقراط متحدثاً لأحد أتباعه:

سقراط: تخيل رجالاً قبعوا في مسكن تحت الأرض على شكل كهف، تطل فتحته على الخارج ويليها ممر يوصل إلى الكهف. هناك ظل هؤلاء الرجال منذ نعومة أظفارهم وقد قيدت أرجلهم وأعناقهم بأغلال، بحيث لا يستطيعون التحرك من أماكنهم ولا رؤية أي شيء سوى ما يقع أمام أنظارهم، إذ تعوقهم الأغلال عن التلفت برؤوسهم. ومن ورائهم تضيء نار مشتعلة في موضع عال، وبين النار والسجناء طريق وبعد الطريق جدار مشابها لتلك الحواجز التي نجدها في مسرح العرائس المتحركة، والتي تخفي اللاعبين وهم يعرضون ألعابهم.

غلوكون: إني لأتخيل ذلك.

سقراط: ولتتصور الآن على طول الطريق رجالاً يحملون شتى أنواع التماثيل التي تعلو على الجدار. وتشمل أشكالاً للناس والحيوانات وغيرها، صنعت من الحجر أو الخشب أو غيرها من المواد.

غلوكون: إنها حقاً لصورة عجيبة، تصف نوعاً غريباً من السجناء.

سقراط: إنهم ليشبهوننا. ذلك لأن السجناء في موقعهم هذا لا يرون من أنفسهم ومن جيرانهم شيئاً غير الظلال التي تلقيها النار على الجدار المواجه لهم من الكهف، أليس كذلك؟

غلوكون: وكيف يكون الأمر على خلاف ذلك ما داموا عاجزين طوال حياتهم عن تحريك رؤوسهم؟

سقراط: كذلك فإنهم لا يرون من الأشياء التي تمر أمامهم إلا القليل.

غلوكون: بلا جدال.

سقراط: وعلى ذلك، فإذا أمكنهم أن يتخاطبوا ألا تظنهم يعتقدون أن كلماتهم لا تشير إلا إلى ما يرونه من الظلال؟

غلوكون: هذا ضروري.

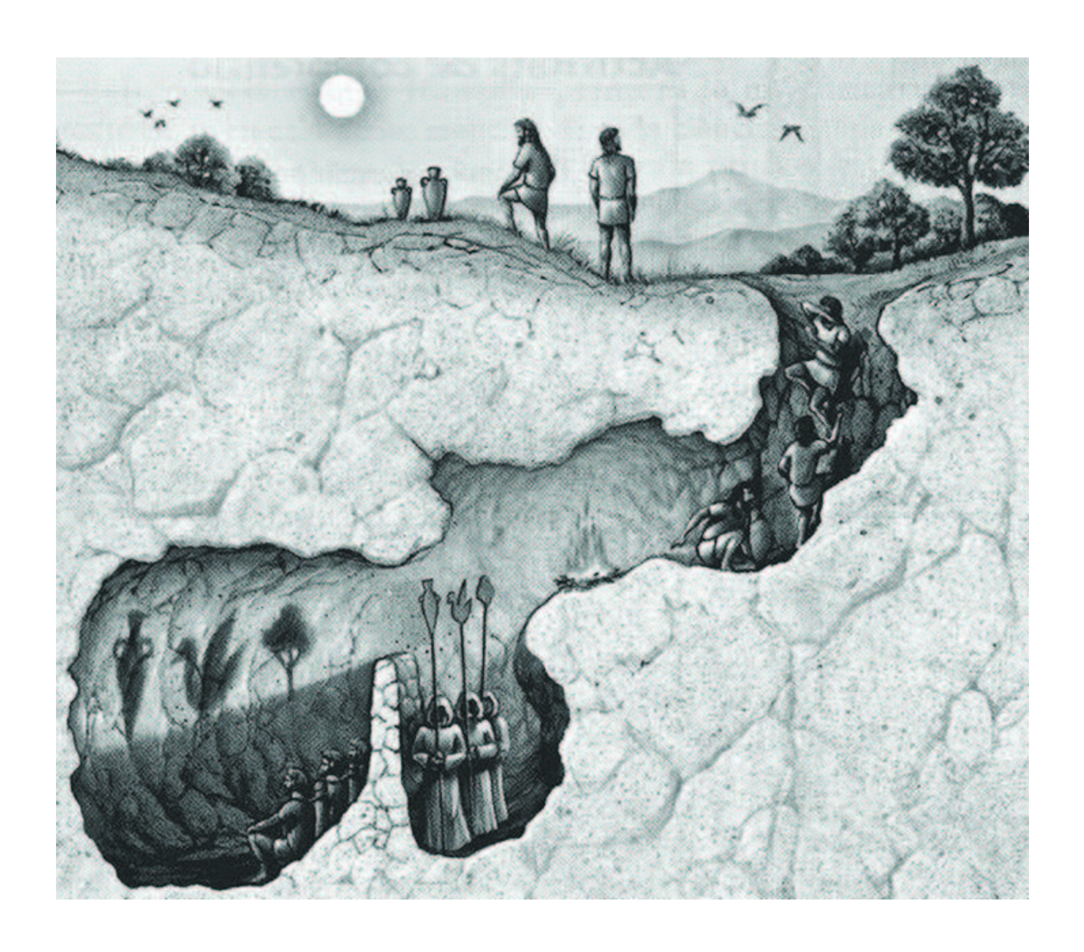
سقراط: وإن كان هناك أيضاً صدى يتردد من الجدار المواجه لهم فهل سيعتقدون كلما تكلم أحد المارة من ورائهم أن الصوت آت من الظل البادي أمامهم؟

غلوكون: بلا شك.

سقراط: فهؤلاء السجناء إذن لا يعرفون من الحقيقة في كل شيء إلا الظلال.

غلوكون: لا مفر من ذلك.

سقراط: فلنتأمل الآن ما الذي سيحدث إذا رفعنا عنهم قيودهم وشفيناهم من جهلهم. فلنفرض أننا أطلقنا سراح واحد من هؤلاء السجناء، وأرغمناه على أن ينهض فجأة ويدير رأسه ويسير رافعا عينيه نحو وهيج النار. ألا تظن أن عينيه ستؤلمانه وسوف ينبهر إلى حد يعجز معه عن رؤية الأشياء التي كان يرى ظلالها من قَبل. وأنه قد يحاول الهرب والعودة إلى الأشياء التي يمكنه رؤيتها بسهولة. فما الذي تظنه سيقول إذا أنبأه أحد بأن ما كان يراه من قبل وهم باطل، وأن رؤيته الآن أدق لأنه أقرب إلى الحقيقة ومتجه صوب أشياء أكثر



حقيقة؟ ولو دفعناه تحت إلحاح أسئلتنا إلى أن يذكر لنا ما الأشياء التي أمامه. ألا تظنه سيشعر بالحيرة ويعتقد أن الأشياء التي كان يراها من قبل أقرب إلى الحقيقة من تلك التي نريها له الآن؟

غلوكون: إنها ستبدو أقرب كثيراً إلى الحقيقة.

سقراط: وإذا ما اقتدناه رغما عنه ومضينا به في الطريق الصاعد الوعر فلا نتركه حتى يواجه ضوء الشمس ألا تظنه سيتألم وسيثور أكثر لأنه اقتيد على هذا النحو، بحيث إنه حالما يصل إلى النور تنبهر عيناه من وهجه إلى حد لا يستطيع معه أن يرى أي شيء مما تسميه الآن أشياء حقيقية؟

غلوكون: إنه لن يستطيع ذلك، على الأقل في بداية الأمر.

فاستطردت قائلاً: إنه يحتاج في الواقع إلى التعود تدريجيا قبل أن يرى الأشياء في ذلك العالم الأعلى. ففي البداية سيكون أسهل الأمور عليه أن يرى الظلال ثم صور الناس وبقية الأشياء منعكسة

على صفحة الماء ثم الأشياء ذاتها. وبعد ذلك يستطيع أن يرفع عينيه إلى نور النجوم والقمر، فيكون تأمل الأجرام السماوية وقبة السماء ذاتها في الليل أيسر له من تأمل الشمس ووهجها في النهار.

غلوكون: بلا شك.

سقراط: وآخر ما يستطيع أن يتطلع إليه هو الشمس، لا منعكسة على صفحة الماء أو على جسم آخر بل كما هي ذاتها، وفي موضعها الخاص.

غلوكون: هذا ضروري.

سقراط: وبعد ذلك، سيبدأ في استنتاج أن الشمس هي أصل الفصول والسنين وأنها تتحكم في كل ما في العالم المنظور وأنها بمعنى ما علة كل ما كان يراه هو ورفاقه في الكهف.

غلوكون: الواقع أن هذا ما سينتهي إليه بعد كل هذه التجارب.

سقراط: فإذا ما عاد بذاكرته بعد ذلك إلى مسكنه القديم وإلى رفاقه السجناء، ألا تظنه سيغتبط لذلك التغير الذي طرأ عليه ويرثي لحالهم؟

غلوكون: بكل تأكيد.

سقراط: فإذا ما كانت لديهم عادة إضفاء مظاهر الشرف والتكرم على بعضهم البعض ومنح جوائز لصاحب أقوى عينين تريان الظلال العابرة وأقوى ذاكرة تستعيد الترتيب الذي تتعاقب به أو تقترن في ظهورها بحيث يكون تبعاً لذلك أقدرهم على أن يستنتج أيها القادم، أتظن أن صاحبنا هذا تتملكه رغبة في هذه الجوائز، أو أنه سيحسد من اكتملت لهم ألقاب الشرف ومظاهر القوة بين أولئك السجناء؟ ألن يشعر بما شعر به أخيل عند هوميروس من أنه يفضّل ألف مرة أن يكون على الأرض مجرد خادم أجير عند فلاح فقير وأن يتحمل كل الشرور الممكنة ولا يعود إلى أوهامه القديمة أو العيش كما كان يعيش من قبل؟

غلوكون: إني أوافقك على رأيك هذا، فخير له أن يتحمل أي شيء من أن يعود إلى تلك الحياة.

سقراط: فلتتصور أيضا ماذا يحدث لو عاد صاحبنا واحتل مكانه القديم في الكهف، ألن تنطفئ عيناه من الظلمة حين يعود فجأة من الشمس؟

غلوكون: بالتأكيد.

سقراط: فإذا كان عليه أن يحكم على هذه الظلال من جديد وأن ينافس السجناء الذين لم يتحرروا من أغلالهم قط، في الوقت الذي تكون عيناه ما زالتا معتمتين زائغتين وقبل أن تعتادا الظلمة، ألن يسخروا منه ويقولوا إنه لم يصعد إلى أعلى إلا لكي يفسد إبصاره وإن الصعود أمر لا يستحق منا عناء التفكير فيه؟ فإذا ما حاول أن يحررهم من أغلالهم ويقودهم إلى أعلى، واستطاعوا أن يضعوا أيديهم عليه، ألن يجهزوا عليه بالفعل؟

غلوكون: أجل بالتأكيد.

مراجع:

Mos Def - Sunshine.

الفصل العشرون
تابو المخدرات

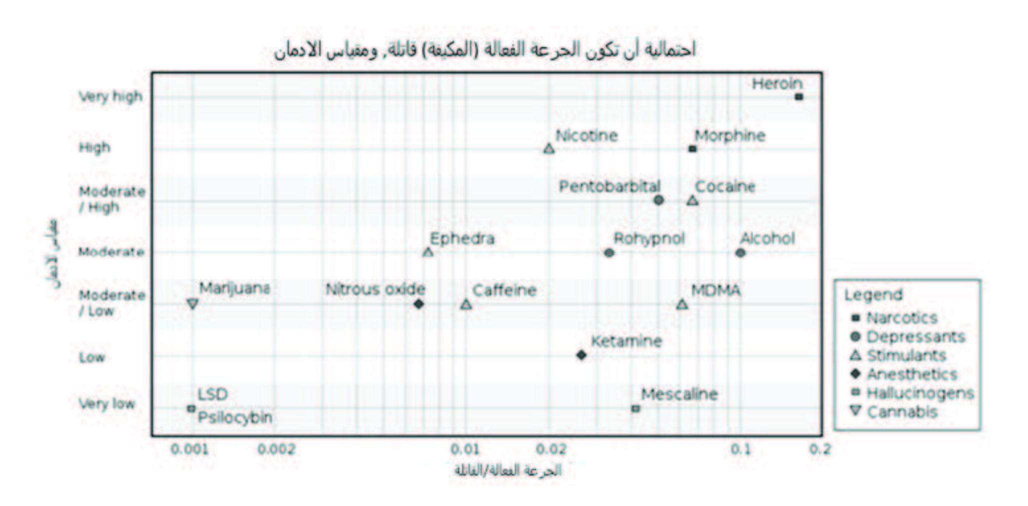
المخدرات اصطلاحاً هي مواد/دواء صناعي أو طبيعي ممنوع قانونياً على الغالب ويؤثر على الشخص ليصل إلى حالة النشوة. وأما مجازاً فشرب القهوة وأكل البطيخ وشرب النعناع الساخن وحتى شرب الماء يحسّن من المزاج، ولكن التعريف الاصطلاحي هو المقصود من الكلام.

المشكلة أن المتحدثين عن المخدرات قسمان: المكافحون الذين لا يعدلون ويجعلونها مصيبة المصائب، والمروّجون الذين لا يعدلون فيجعلونها أطيب اللذات، والناس ضائعة بين الفريقين، فالهدف من الحديث عنها ليس الترويج ولا الترهيب بل الوعي، ونشر الوعي لا غبار عليه.

المخدرات تزيد من مواد السعادة في المخ كالدوبامين وتسبب شيئين: نشوة (إيجابية في الغالب) وهلوسة. كما أنها تضاعف المشاعر وتسرعها وتعطل التفكير لتعيش حراً ترى الطبيعة والأكوان المتوازية بحلوها أو بمرها في أحيان قليلة (good/bad trip) كمن رأى الجنة والنار. وهناك أنواع من المخدرات تتميز بالهلوسة أكثر كالمشروم السحري وهناك أنواع تتميز بالنشوة أكثر كالكوكايين وهناك أنواع مهبطة مكسلة كالقنب الهندي وهناك أنواع منشطة مسهرة كالأمبفثامينات. وكل نوع من المخدرات يعد تجربة فريدة وتأثيره مختلف على الدماغ وإن كانت بعض الأنواع تتشابه.

هناك تصنيف علمي كمقياس للإدمان والضرر لكل نوع من المخدرات، من البسيط كالقات إلى القاتل شديد الإدمان كالهروين والمِيثَامفيتامين (Methamphetamine). التبغ لا تحسبه أقلها ضرراً وإن كان لا يعطي النشوة مقارنة إلا أن إدمانه شديد ويسبب في قتل الملايين من البشر حول

العالم فهو يقع قرب المنتصف. والخمور وإن كانت مسموحة في أغلب دول العالم فهي تقع حسب أغلب الدراسات فوق المنتصف وخصوصاً أن المتعاطي قد تحفز لديه الرغبة في العنف وإلحاق الضرر بالآخرين. وأحياناً تجد أن هناك تبايناً كبيراً في الدراسات ولكن الثقافة والقراءة ومعرفة مميزات وأخطار كل مخدر تظل مهمة.



هناك دول تسمح بالمخدرات وهناك حركات ومنظمات تشجع على بعض الأنواع وخصوصاً الماريجوانا وتصفها كعلاج استرخائي تأملي ونفسي ومسكن للآلام وعلاج لكثير من الأمراض النفسية والاكتئاب. وهناك من يرى أن هلوسات المشروم السحري وغيره من المهلوسات هي تواصل روحاني وجداني مع الأكوان الموازية والأرواح. أو كمفهوم وسط وكما عند جماعة المغني بوب مارلي وثقافة الرستا فهم يأخذون تعاطي الماريجوانا كقَدَر ويكنون لها التقدير والاحترام وبالتالي فهم يغضبون من القول بتجربة مخدر آخر كما يغضبون من النصح بالإقلاع.

المشكلة الرئيسيّة في المخدرات هي الإدمان المدمر والقاتل أحياناً، هناك مصطلح يسمى اللحاق بالتنين (Chasing the dragon)، والتنين هو اللحظة الأولى أو الأعلى للنشوة والتي كأن صاحبها صار ملاكاً وأحب الكل ودخل الجنة. لحظة جميلة وساحرة ولكن المشكلة أنه عندما يزول تأثير المخدر فإنه يصبح كالملاك الذي طُرد من الجنة أو سقط من السماء. فيلجأ لاستخدام المخدر مرة أخرى ويسعى إليه بشتى الطرق ولكنه لا يصل لتلك اللحظة فيزيد الجرعة أو قد ينتقل إلى مخدر آخر أخطر وهكذا يحصل ما يسمى بالإدمان. وحتى لو حصل على نفس النشوة الأولى أو أفضل فسيزداد الإدمان وكأنه سقط من علو أكبر عندما يذهب المفعول.

المشكلة الثانية هي منع المخدرات وربطها بالعقوبة والسجن، ربطها بسوق سوداء ومجتمع إجرامي وعزل المدمنين عن المجتمع وزاد عندهم القلق والوساوس والإدمان والانتكاسات.

المشكلة الثالثة إن المدمنين إن لم يكن كلهم فأغلبهم يبالغون في الاستخدام. فالتبغ مثلاً كان يُستخدم من قِبل الهنود الحمر في المناسبات الاجتماعية ويتشاركون غليون يسمى بغليون السلام (Peace Pipe) فهو ليس بذاك الضرر ولكن اليوم تجد أن المدخن يدخن علبة أو علبتين من السجائر في اليوم.

المشكلة الرابعة هي أن المخدرات تجعل الإنسان ينفصل عن الواقع فتجده لا يهتم بصحته ودخله وأهله وأصدقائه ولربما وجدته نصف عارٍ ملقى على الرصيف متسخاً، ولكنه يعيش في جو من الجنة والسماء. وكذلك قد تقل محبة الناس في قلبه، لأن المخدرات أجمل حتى من ممارسة الجنس، وحتى شلة المخدرات الذين تعدهم أعز الأصدقاء لا تحلوا جلستهم إلا بالمخدر.

المشكلة الخامسة أنها قد تعمل عمل الشرارة لمن لديه فصام أو جنون كامن داخله، فالمخدرات قد تظهره بيّناً جلياً، وقد تسبب في تدهور الوضع النفسي. والمعروف أنه أثناء التعاطي يُصاب الإنسان بنوع من الانفصال عن الواقع والهلوسة ثم يفيق، ولكن المشكلة أن الانفصال عن الواقع قد يستمر ليصبح عاماً وحتى دون تعاطٍ.

المشكلة السادسة: إن المدمن ينفصل عن غير المدمنين فتجده لا يصاحب إلا مدمناً ويفقد كل أصدقائه وروابطه القديمة، وخصوصاً في الدول التي تكون فيها عقوبة المخدرات كبيرة.

وتصنيف الناس بالنسبة لاستخدام المخدرات أربعة أنواع: الأول، من لا يعرف شيئاً عن المخدرات ولم يدخل عالم المخدرات. والمخدرات ومهما وصفها أحد لك ولو استمر يصفها لك لمدة عشر سنين فلن تعرفها حتى تعيشها وتجربها بنفسك، فكأننا نعيش في عالمين مختلفين، عالم داخل عالم، بل وربما من دخل عالم المخدرات نسي العالم المعروف الحقيقي، وكما أنني لو ظللت اصف لك طعم التفاحة عشر سنين فلن تعرفه حتى تتذوق التفاح. والثاني وهو مدمن المخدرات. والثالث وهو التائب وهو من كان يتعاطى المخدرات ثم أقلع عنها، فهو لا يتعاطى ولكنه يفهم ويستوعب ماذا تعني المخدرات، وهو نوعان: نوع صادق في ماضيه ونوع كذاب، وكذلك نوع يكافح المخدرات

ونوع لا يهتم. والرابع، وهو الرجل الحديدي أو «Mission Impossible»، وهو من يستخدم المخدرات في المناسبات وفي بعض الأحيان فقط دون الإدمان أو الطلب.

لا ننسى أن المخدرات تعد نوع من الدواء، ويمكن تشبيه المخدر بالمضاد الحيوي أو بأي من الأدوية التي تسبب ادمان، المضاد الحيوي يفيد كثيرا في حالة المرض ولكن الجسم يعتمد عليه فتضعف المناعة، كذلك المخدر في حالة السأم والاكتئاب مفيد جداً ويشعر بالسعادة الفورية غالباً ولكن الجسم يعتمد عليه فتضعف مقاومته للاكتئاب. ومن الجدير بالذكر أن هناك أمور بديلة ومفيدة تعطي النشوة كالسباحة في ماء بارد والحب والرياضة والاعتزال وموسيقى الجاز والسهر على مساعدة الآخرين. وأن العادات كالطاقة لا تفنى ولا تستحدث ولكن تتحول من شكل إلى آخر.

مراجع:

Ray - 2004.

Trainspotting - 1996.

Requiem for a Dream - 2000.

Things We Lost in the Fire - 2007.

الفصل الحادي والعشرون
الأسرة، وعلم الاجتماع

الأُسرة مشتقة في أصلها من الأسر. والأسْر لغة بمعنى القيد وهو الحبس والإمساك. فالأسرة لون من ألوان الأسر أو القيد، إلا أنه أسر اختياري يسعى إليه الإنسان؛ لأنه يجد فيه الدرع الحصينة، ويتحقق له من خلاله الصالح المشترك الذي لا يتحقق للإنسان بمفرده دون أن يضع نفسه اختيارياً في هذا الأسر أو القيد.

الأسرة هي جماعة لها صفات مشتركة وأيضاً أشخاص تجمعهم صلة النسب كالأبناء والإخوة وأبناء العم. وهم رهط الإنسان الأدنون وهم على المستوى الأصغر والأهم زوجة الرجل وأولاده وأهل بيته. وبتعريف جون لوك (1632-1704): الأسرة هي جماعة من الأشخاص يرتبطون معاً برابط الزواج والدم مكونين مسكناً واحداً، متفاعلين كلاًّ مع الآخر وفقاً لأدوار اجتماعية محددة كزوج وزوجة وكأب وأم وأبناء وإخوان، مكونين ثقافة مشتركة. وبتعريف أوغست كونت (1798-1857): الأسرة هو اتحاد ذو طبيعة أخلاقية. ويمكن اعتبار الأسرة أيضاً نظام اجتماع أو منظمة اجتماعية متعارفاً عليها تقوم بسد حاجات إنسانية معينة.

الأسرة أو العائلة كمسمى آخر أو الأهل هي نسق اجتماعي ليس منعزلاً بل يؤثر على بقية الأنساق الأخرى كالاقتصاد والسياسة ويتأثر أيضاً. وقد كانت الأسرة تقوم بكل شيء من تعليم ودين واقتصاد وترفيه وحماية وغيره وكأنها دولة صغيرة ولكن مع تطور المجتمع أُخذ جزء كبير من دور الأسرة لصالح المؤسسات الأخرى كالمدرسة والشركات والدولة. ففهم الأسرة يساعد في فهم بقية المؤسسات فالأسرة هي النواة الأساسية للمجتمع.

لقد كنت درويشاً في أغلب حياتي وكنت أظن أن الحب كاملاً كما في الأفلام، عاطفة وتفاني وتطابق وكمال وحياة تخرجني من حياة الشقاء التي أعيشها. وربما أن أحد الأسباب التي جعلت حبي مثالياً هو تعلقي الشديد بأبي رحمة الله وقد كان قمة في الطيبة والتفاني. ولكن أبي عملة جد نادرة، يكاد لا يوجد مثله هذه الأيام. وقد كانت الحياة تقسو عليَّ كثيراً: من أصدقاء تركوني للمظاهر، ومن أصحاب يدعون أنهم يحبون في الله وهم ذئاب بشرية، ومن مدراء وزملاء خبثاء ومن أقارب كالعقارب، ومن حب وزواج فاشل. ولكن وأخيراً تعلمت وبعدما خسرت كل شيء أن الخطأ قد يكون مني لأني فهمت الحياة بدروشة. فالحب ليس وكما في القصص الغرامية والأفلام بل هو أقرب لما يكون في علم الاجتماع، عملية تفاعلية اجتماعية بها مصلحة وذوات تتفاعل وتتصارع حتى داخل البيت الواحد.

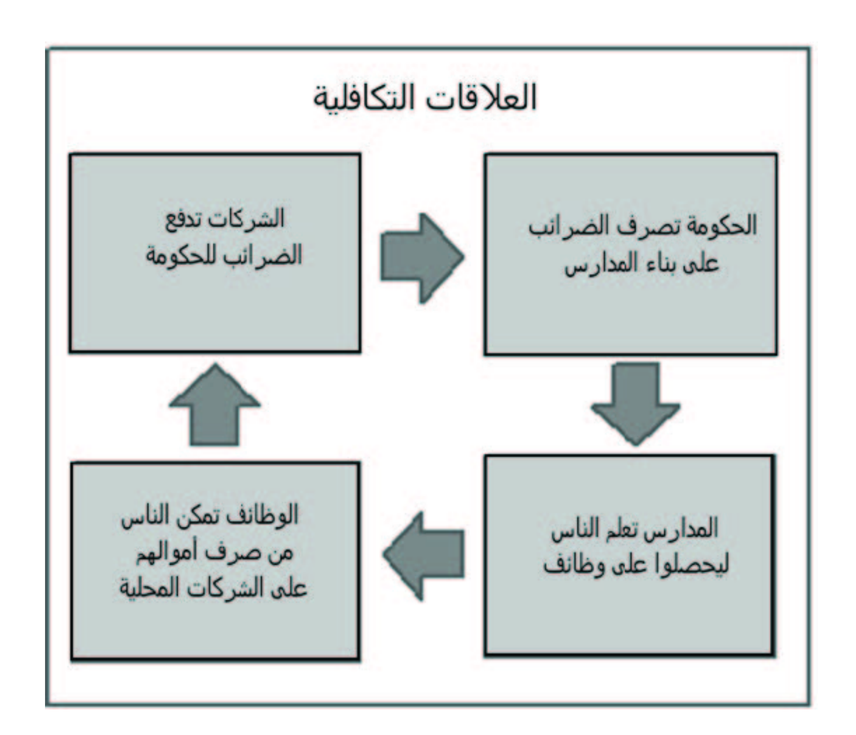
إن مما أفاد الكاتب كثيراً في التعامل مع الأسرة ومع المجتمع ككل هو قراءتي في علم الاجتماع. عندها فهمت أن نظرتي الحالمة المثالية في التعامل مع الناس قد تكون خاطئة نوعاً ما، وإن كان القلب ما زال معلقاً بحب حقيقي وما زال يحلم أن يكون الناس لبعضهم البعض وأن يحب أحدنا لأخيه ما يحب لنفسه.

في علم الاجتماع يُقسم المجتمع لنظم اجتماعية، أنت في عملك في نظام اجتماعي (اقتصادي)، الدولة ككل نظام اجتماعي (سياسي)، الأسرة نظام اجتماعي، الجمعية الخيرية التي تدعمها نظام اجتماعي، مسجد الحي والكنيسة نظام اجتماعي (ديني)، وحتى شلة أصدقاؤك في المقهى أنتم تكونون نظاماً اجتماعياً. وأن كل نظام اجتماعي يتكون من عناصر أو أفراد يتفاعلون في ما بينهم وفي نفس الوقت الأنظمة الاجتماعية المختلفة تتقاطع وتتفاعل في ما بينها.

إن دراسة الأسرة نوعاً ما كدراسة المؤسسة أو الدولة، وإن فهم الأسرة وكما ورد يساعد في فهم السياسة والاقتصاد والعكس صحيح، وإن كان الفارق الرئيسي أن الأسرة عادة تتفاعل بنوع من البساطة والمودة والحب بينما الدولة تتفاعل عادة بنوع من التعقيد والقسوة والمكر. فيما يلي أهم النظريات الاجتماعية المعاصرة في دراسة الأسرة وكذلك في دراسة المجتمع بشكل عام (كل نظرية تنظر إلى المجتمع والأسرة بنظارة مختلفة أو ما يسمى برادايم، وكل نظرية لها العديد من الانتقادات والقصور ولكن لا مجال لذكرها هنا):

- نظرية النسق أو النظرية الوظيفية (Functionalism): تنظر إلى المجتمع نظرة

عامة موسعة وإيجابية متفائلة، وفكرتها العامة أن المجتمع في محاولة دائمة ليوازن نفسه. وإن المجتمع مكون من عدة أبنية اجتماعية أو أنساق. كالنظام التعليمي والمؤسسات المالية والأسرة والشرطة والقانون وغيره. وأن المجتمع أشبه ما يكون بجسم الإنسان والأنساق عبارة عن أعضاء وأجهزة الجسم بحيث إنها تتداخل وتتشابك وتتكامل وتعتمد على بعض كما أن الجهاز التنفسي يتكامل مع القلب ومع الكبد ومع الجهاز المناعي. لكل عضو (نسق) مفرد وظائف وأهداف، وهم جميعاً يحققون التوازن الصحي للجسم (المجتمع). وإن الأسرة - والتي هي أحد الأنساق- هي قلب المجتمع وهي الحضن الدافئ ولها عدة وظائف إيجابية منها الاستقرار العاطفي والجنسي والحفاظ على النسل البشري وتنشئة ودعم الأطفال وغيره.



والآن عزيزي القارئ انظر إلى الأسرة كانعكاس للمجتمع أو كمجتمع صغير (أي كجسم كامل) وأن كل فرد من أفراد الأسرة عبارة عن عضو من الأعضاء، وأن الأعضاء تتداخل وتتشابك وتتكامل وتعتمد على بعض. مثلاً، إن أُصيب أحد أفراد الأسرة باضطراب نفسي غالباً ولأسباب معينة ما يلحقه فرد آخر. ماذا لو أن أخوين أحدهما غني والآخر أصابه الفقر فإن الأول في الغالب سيساعد الآخر من باب المحبة والأخوة أولاً، وربما أيضاً نصحه ووبخه، ثم لعوامل كثيرة؛ حتى لا يحس

أبناؤه بالتكبر عندما يكونون مع أبناء أخيه مثلاً، وأيضاً سيكون عليه ضغط اجتماعي أسري وخارجي، إذ كيف تكون غنياً وأخوك معدم فقير يستلف من الغرباء - في الغالب إن هذه العوامل تحسب في العقل الباطن أو اللاشعور - وهكذا فإنه وفي الغالب سيساعد أخاه وهذا ما سيساعد في خلق التوازن المذكور على مستوى العائلة الصغيرة وعلى مستوى العائلة الممتدة (القبيلة).

- نظرية الصراع أو القوة (Conflict theory): تنظر إلى المجتمع نظرة عامة وموسعة وهي بشكل رئيسي من أفكار كارل ماركس. تذكُر النظرية أن التصرفات الإنسانية تنشأ من الصراع بين المجموعات المتنافسة سواء عنصرية أو طبقية أو غيرها. وإن الصراع المادي هو الصراع الرئيسي الذي يؤثر على الحكومة والإعلام وحتى التعليم والأسرة وكل المؤسسات الأخرى. وإنه في كافة المجتمعات هناك طبقتين متصارعتين، البرجوازيون أو الأسياد أو أصحاب الأموال من جهة والكادحون أو العمال من جهة. وإن الطبقتين في صراع دائم ولكن البرجوازيين هم طبعاً من يملكون القوة والتحكم والأمر، وهم يستغلون العمال الكادحين على قدر المستطاع. ولكن إذا زاد الظلم على الكادحين فقد يتكون عندهم وعي اجتماعي مما قد يؤدي إلى نقابات حقوقية أو ثورة عامة. فالصراع الحقيقي هو أن الطبقة البرجوازية ترغب في أن تسير الأمور كما هي عليه بينما الطبقة الكادحة ترغب في التغيير. والهدف الأسمى لماركس هو بالطبع القضاء على هذا النظام الرأسمالي الصراعي الظالم، ليعيش الناس بحرية وتشارُك ومساواة وبدون الحاجة لحكومة في ظل الجمال الشيوعي.

النظرة الصراعية تنظر إلى الأسرة نظرة سلبية للغاية فالأسرة لها ثلاث وظائف كلها تدعم الرأسمالية (الفرق الطبقي). أولاً الورث، فقد كان الناس في الماضي يعملون مع بعض ويتشاركون كل شيء بمحبة وحتى العملية الجنسية كانت مفتوحة فالزواج ليس إلا اختراعاً للأنانية والتملك، وحتى يضمن الأب أن الإرث سيكون في أبنائه لا غير. ثانياً، الأسرة عبارة عن تدريب إيديولوجي للخضوع والرضوخ للقوة، فالأولاد يصغون لآبائهم وينقادون مما يسهل انصياعهم لمدراءهم لاحقاً عندما يكبرون،

وكذلك فإن العائلة كمستراح تُهون به ضغوط الرأسمالية. ثالثاً، الأسرة عبارة عن وحدة استهلاك.

والآن عزيزي القارئ انظر إلى الأسرة كانعكاس للمجتمع أو كمجتمع صغير يدور داخله صراع (بغض النظر عن النظرة الرأسمالية/الشيوعية). هناك صراع على القوة وصناعة القرار داخل الأسرة. والقوة تعَرف على أنها القدرة على التحكم في أفعال الآخرين أو التأثير عليهم بصرف النظر عن موقف هؤلاء الآخرين، وليس شرطاً أن تكون القوة عنفاً بل ربما قُبلة من زوجة لزوجها أو هدية زوج لزوجته، أو حتى كلمة شكر وتعبير عن امتنان من أب لابنه. فاستخدام القوة بالمعنى المذكور طبيعة بشرية وليس غريباً أو عيباً ولكن العيب في العنف والتجسس والغيبة والكذب وما شابه. وكذلك الصراع ليس هدفه مادياً بحتاً بل ربما يكون هدفه نيل التقدير أو الحب أو الانتباه وغيره. ففي مثال الأخوين السابق سيساعد الأخ الغني أخاه الفقير لنيل القوة الشخصية - في اللاشعور غالباً - كذلك القوة للأسرة ككل. أضف إلى ذلك أن هناك صراعاً طبقياً نوعاً ما داخل الأسرة، فهناك ميل للقوي من أب وأم للنظام وفرض الأوامر بينما يميل الأبناء للتغيير وشيعان الأمور.

- النظرية النسوية أو الأنثوية (Feminist theory): وهي ليست إلا نظرية مشتقة من نظرية الصراع السابقة وهي نسخة مكررة، وكل ما علينا فعله هو أن نستبدل البرجوازيين المسيطرين بالرجال والعمال المظلومين بالنساء. وأنه وبالفعل فالصراع بين الجنسين في السيطرة والثقافة والحصول على الأدوار والوظائف قد يكون أوضح وأعم من الصراع بين الطبقات الاجتماعية. الكثير من الرجال يؤيدون النظرية النسوية لدفاعهم عن الضعيف المظلوم وكذلك لاعتقادهم أن التفرقة والتمييز ضد المرأة تضر بالجميع. وهناك من يرى العكس، يرون بمظلومية الرجل أكثر من مظلومية المرأة.

وكذلك الأمر داخل الأسرة فإن الصراع الرئيسي ليس بين الطبقات كالآباء ضد الأبناء ولكن الصراع الحقيقي هو إناث ضد ذكور - وكما ذُكر فإن الصراع داخل الأسرة غالباً ما يكون معنوياً لطيفاً لا أكثر- وأن الأخ الغني يساعد أخاه الفقير لتميل

الكفة لصالح الذكور داخل العائلة ولوجوب تكاتفهم بينما لو ساعد أخته فلكسبها والسيطرة عليها.

إن أنصار الليبرالية النسوية ومن قاربهم يرون أن تكوين الأسرة أمر اختياري ولكن يجب عدم النظر للمرأة كخادمة أو مربية، وتحسين وضعها من تجريم العنف وتسهيل الطلاق وغيره. وأما النسوية الراديكالية فيرون أن الزواج خدعة كبرى وأنه يجعل المرأة جارية عند الرجل وحتى أن بعضهم ضد العلاقة الجنسية مع العدو «الرجل».

- نظرية التبادل الاجتماعي (Social exchange): هذه النظرية تشبه العلاقات الفردية داخل المجتمع والأسرة بمنظومة العلاقات التجارية أو التبادلية في النظام الاقتصادي. إن البشر في تعاملاتهم يتجنبون السلوك المكلف ويسعون إلى تعظيم الفائدة باستراتيجيات معينة، وأن السلوك البشري هو محصلة لعمليات مقارنة مستمرة بين البدائل المختلفة وفقاً لمبدأ التكلفة والعائد - مرة أخرى المقارنة والحسابات تكون في اللاشعور غالباً-. والتبادل هنا ليس مادياً بحتاً بل يغلبه الجانب المعنوي كالقبول والاستقلال والأمن والمثل العليا والرضا، والتبادل يتم في ضوء قيم المجتمع. وإن السلوك البشري يفسر في ضوء العقلانية، فالأسرة إذاً هي جماعة من الأفراد تعيش في ضوء المصلحة وتقليل التكلفة وزيادة الفائدة. وإن الأخ الغني اتخذ قرار مساعدة أخيه الفقير لميل كفة المصالح أو الفائدة على الثمن أو الضرر وذلك مقارنة مع قرار عدم مساعدة أخيه.

- نظرية التفاعل الرمزي (Symbolic interactionism theory): إحدى النظريات الرئيسية والحديثة نسبياً في علم الاجتماع. وهي تنظر إلى المجتمع على المستوى المصغر أو الفردي أولاً ثم المؤسسي، بحيث إن الأفراد هم صانعو القرار الرئيسي ومن ثم يتجمعون ويكونون المؤسسات والقوانين والمجتمع. وهي ترفض اعتبار الأشخاص كحيوانات أليفة يتم التحكم بهم من خلال الأنظمة الاجتماعية والمؤسسات أو النظام الطبقي. كل شخص هو عبارة عن ثقافة وعالم رمزي، والتعاملات الإنسانية ليست حصراً صراعاً أو مصلحة أو وظائف محددة أو محاولة لخلق التوازن ولكنها أشبه بعوالم وثقافات تتفاعل مع بعضها البعض. وأن المنظور

الشخصي للنفس مبني نوعاً ما على منظور الآخرين ومتفاعل معه، مما يكون شبكة من التفاعلات الاجتماعية (المجتمع)، وأن هويتي الشخصية لا يمكن وصفها إلا من خلال شبكة التفاعلات مع الآخرين وبالتالي النظرية تنظر للأسرة كأفراد وأدوار تتفاعل أكثر مما تنظر إليها كبناء اجتماعي، ولكن أفراد الأسرة وبسبب قربهم والتصاقهم بـي فهم يعطونني الجزء الأكبر من ثقافتي أو عالمي الرمزي. ونحن كعائلة نكون مجموعة وهذه المجموعة عبارة عن ثقافة وعالم رمزي أيضاً تتفاعل مع أفراد آخرين وعوائل ومع المجتمع ككل. ويمكن القول أن الحب لا يكون بين طرفين فقط بل هو بين ثلاث أطراف أنا وأنت والبقية (البقية أي الآخرين أو الظروف أو الكون أو الكل بمفهوم أوسع). وأنني كما يجب على أن أحبك وأن أغريك بحبي، فإنه يجب علينا أن نتأقلم مع الآخر، ولا أن تجرحني ولا أجرحك ولا نجرحه. فالعلاقة بيننا حبيبتي ليست خط مستقيم بل على شكل مثلث.

الأسرة لها تأثير قوي في تشكيل ملامح الشخصية للأبناء. فلا تلُم الآخرون كثيراً فالبعض وُلد لوالدين بغيضين سيئين وبيئة سيئة فمن الطبيعي أن يتطبع (المدرسة السلوكية في علم النفس) وإن كان اللوم لا يذهب عنه. وعند البعض والد طيب وأم سيئة أو العكس فيعيش في تخبط. ولو افترضنا أن نسبة البشر السيئين للطيبين على الأرض 50/50 فنسبة الحصول على والدين كليهما طيبن ستكون 25%، وكذلك البعض يتيم. ومن حظي بوالدين متفاهمين طيبين وأخوة فتلك النعمة الكبرى.

إن أباك قدوتك وسماؤك وإن أمك ظهرك وأرضك، وإنه لا مجال لك أن تفهم الكون ومعنى للحياة ومهما حاولت دون أمك، من الذي أوجدك؟ من الذي جلبك لهذه الدنيا؟ من الذي رباك وأنشأك؟ من الذي يستطيع قرأتك من لمحة عين؟ من نبع الحنان إلا أبوك وأمك. أتظل عطشاناً تائهاً تبحث في بحر الفلسفة والعلوم المالح وبين يدك عطف وماء فرات، كل هذه الأمور والقصص والأفلام والمسلسلات لا لشيء إلا لشغلك ولكي تنسى أمك. ولا مجال أن تحب الكون أو أن تستقر عاطفياً دون أن تحب أمك.

نعود قليلاً لعلم الاجتماع، إن مؤسس العلم الأول هو أوغست كونت (Auguste Comte) وهو الذي صك المصطلح «علم اجتماع» عام 1830 وله جهود كبيره يشكر عليها. ولكن المؤسس

الحقيقي لعلم الاجتماع هو إميل دوركايم (Émile Durkheim) وأشهر أعماله كتاب الانتحار 1897. أخذ دوركايم ينظر في سجلات وتقارير الانتحار لسنوات وأخذ يقارن فوجد أن الانتحار يكون عند الرجال أكثر من النساء، وفي فئة عمرية معينة أكثر من الأخرى وفي الشتاء أكثر من الصيف وهو يكثر أيضاً في الأعياد، وأن معدل الانتحار عند الألمان أكبر من الشعوب الأوروبية الأخرى. وإن الكاثوليك أقل انتحاراً من البروتستانت، والمتزوجين أقل انتحاراً من العازبين، والفلاحين أقل انتحاراً من سكان المدن، وفي وقت الحروب يقل الانتحار عن أوقات السلم وهكذا. وبهذا حاول دوركايم أن يثبت أن الانتحار ليس مسألة مرض نفسي فقط كما كان ينظر إليه ولكنه مسألة اجتماعية بشكل كبير.

وقد كان الهدف من إنشاء علم الاجتماع هو سن قوانين موحدة كما هو عند الرياضيين والفيزيائيين. بحيث إن دراسة سنن المجتمع وقوانينه وتحركاته ستمكن من التنبؤ بما سيحدث في المستقبل بشكل دقيق، ولكن علم الاجتماع فشل فشلاً ذريعاً في ذلك. وأصبح هناك عشرات القوانين والآراء في الشيء الواحد ولكنه بقي علم مفيد ومحترم. إن الكلام في علم الاجتماع طويل وهو أعذب من الماء وأشبه بالسحر، وإن أحد أهداف هذا الكتاب والذي لم يذكره الكاتب في المقدمة هو تشويق القارئ وتحبيبه بالعلوم الحقيقية والتي تدرس في الجامعات من فيزياء وأحياء وعلم اجتماع وما شابه. إن المشكلة الأساسية في المنطقة العربية ليست هي عدم القراءة بل انتشار وقراءة الكتب التافهة والترجمات السيئة. أصبح القارئ بدل أن يقرأ لدوستويفسكي وداروين وماركس، أصبح يقرأ كيف تصبح ذكياً وغنياً في ستين يوماً! وأصبحنا أنصاف متعلمين، وأنصاف المتعلمين أسوأ من الجهلة بمراحل.

إن نظريات العلوم الإنسانية والفلسفة (وكل ما ورد في هذا الكتاب) هي في العادة معروفة بديهية وغاية في البساطة وربما التفاهة وأنها غالباً مرت على فكر أي إنسان مرات عديدة، ولكن الجمال في نقلها من شذرات أفكار إلى كلام مكتوب ومؤصل ومرتب. وأنك عندما تقرأ هذه النظريات فإنك سترتاح ذهنياً بشكل كبير، فعلى الرغم من أنها بديهية بالنسبة إليك ولكن عقلك سيتأكد أن شخص آخر قد فكر نفس تفكيرك وهذا يعني أنك أقرب للصواب. بالطبع الانتحار ظاهرة اجتماعية وبالطبع البيئة تؤثر على الإنسان ولعلك فكرت عندما سمعت أن أحد أقربائك انتحر ولربما قلت: «إن ذلك بسبب والديه الشريرين أو قلت إن الفقر أو الظلم موجع وقد يؤدي للانتحار». ولكن يعود الفضل لدوركايم في التأصيل والتوسع والترتيب وكذلك الوضوح والتركيز على جانب معين

والربط بين الأفكار والاستنتاج وما شابه. وبالتالي أصبح هو صاحب الفكرة وهو بذلك يفتح المجال لغيره للتوسع والإبداع أكثر والانتقاد.

مراجع:

أ. د. أحمد زايد - مدخل إلى علم الاجتماع (محاضرة مسجلة).

د. حسام صالح - علم اجتماع الأسرة والطفولة (محاضرة مسجلة).

Ivan Szelenyi - Foundation of Modern Social Theory (Yale course).

الفصل الثاني والعشرون

الظلم أخو الكفر، والمنسي الميزان

الظلم والكفر على ارتباط وثيق فالظالم شديد الظلم لو كان يؤمن بالله والحساب لما ظلم وتمادى في ظلمه. أي نعم لا أحد يستطيع أن يقرأ ما في النفوس ولا يجوز تكفير أي شخص بالاسم مهما كان ولكن ظلمه دل على كفره ولو صلى وصام. وعلى الجانب الآخر هناك أناس ملحدون لا يؤمنون بالله ولكنهم خدموا الإنسانية وتصدقوا بأموالهم وكرسوا أنفسهم لخدمة الناس. هؤلاء قد يكونون مؤمنين في عقلهم اللاواعي ولكن لا يعلمون. فكلامهم يشبه كلام الصوفية بقولهم نحن لا نفعل الخير طمعاً في جنة أو خوفاً من نار بل نفعله لأجل ذات الخير والنور، والخير والنور هو الله. ويقولون أننا لا نسلم للإيمان بإله ولكننا نبحث عن الحقيقة، والله هو الحق والحقيقة. وقد يمن الله عليهم ويهديهم في آخر حياتهم جزاء لما فعلوا من خير.

وهنا يجب أن نقف عند مفهوم الحب في الله، فليس المراد به أن أحب شخص لأن دينه يوافق ديني ومذهبه يوافق مذهبي وأن أكرهه لغير ذلك، فتلك قد تندرج تحت باب العنصرية. المراد بالحب بالله هو الحب الغير مشروط، الحب لمجرد الحب لا المصلحة، الحب لمن تحلى بالصفات الحميدة من صدق ومودة وحلم وتقوى وتقرب من الله وتصوف وأعمال خير وبحث عن الحقيقة. وإن كان على غير الإسلام فتمني صادق له ودعوه في ظهر الغيب ونصيحة على غير الحاح - بدل أن ترتدي حزام ناسف وتفجره- وإن كان مسلماً زاد الحب فأصبح حبين.

بعيداً عن الفلسفة هناك أمر مهم نسيه المسلمون أو تناسوه وهو الميزان وأن دخول الجنة ليس كما نتمنى بإدعاء أننا مسلمون أو كما تمنى أهل الكتاب بإدعاء أنهم أهل كتاب بل بالعمل الصالح. **{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا**

وَلاَ نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}. فالمراد أن الناس ليسوا على خير مطلق ولا شر مطلق. وإن كل عمل (سواء عمل جوارح أو عمل قلبي) كفسيفساء صغيرة وكل شخص أعماله تتجمع وتتراص لتبدو الصورة الأخيرة كلوحة من الفسيفساء.

مراجع:

Gandhi - 1982.

Tupac - Unconditional Love.

الفصل الثالث والعشرون

ومن شر حاسدٍ إذا حسد

الحسد مذكور في القرآن الكريم وشبه مثبت علمياً بما يسمى بالهالة أو طاقة الجسم. وتعريف الحسد هو شعور عاطفي بتمني زوال قوة أو إنجاز أو مُلك أو ميزة من شخص آخر والحصول عليها أو يكتفي الحاسد بالرغبة في زوالها من الآخرين. وأما لو كان تمنى زوال نعمة تستخدم للشر كالسلطة من طاغية أفسد في البلاد أو المهارة من لص يسرق الناس فهذا لا يعد حسداً وإن كان تمنى الهداية أسلم وأجمل، ولكن يجب التحرك وإيقافه عند حده فعلاً وقولاً وعلى قدر المستطاع. يَذكر الفيلسوف بيرتراند راسل (Bertrand Russell) إن الحسد أحد أقوى أسباب التعاسة، ولا تقتصر التعاسة على الشخص الحاسد بسبب حسده. بل قد تصل إلى الرغبة في إلحاق مصائب بالآخرين.

على الجانب الآخر، فريدريك نيتشه (1844-1900) كان كما يتمنى الألم لنفسه فإنه يتمناه لأصدقائه والمقربين إذ يقول وبكل صراحة «إلى كل الأشخاص الذين يهمني أمرهم، أتمنى لهم العذاب والكآبة، سوء المعاملة والإهانات، احتقار الذات العميق، وعذاب الشك في النفس». وليس تمنى الألم والعذاب عند نيتشه من الكره والحسد بل العكس لأنه يعتقد أن المتعة والألم مرتبطان بقوة معا، ومن يريد أكبر كمية ممكنة من المتعة عليه أن يقبل بكمية تساويها من الألم. واعتقدَ أن كل إنسان متاح الخيار، إما يختار أقل قدر ممكن من المعاناة وبالتالي يستغني عن قدر من النضج وتحقيق الذات، أو يختار احتضان معاناته على أكبر قدر، وبالتالي يحصل ليس فقط على كمية أكبر من النضج وتحقيق الذات، بل على ملذات خفية نادراً ما يشعر بها من استنكر معاناته. ويَذكر أيضاً: إنه إذا قررت تقليل درجة الألم البشري، فأنت أيضا تقلل قدرتهم على الشعور بالمتعة والسعادة. فبالنسبة له اختيار المعاناة هو عدم الخوف من الصعاب ومواجهتها، وتقبل جرعة المعاناة التي تأتي

معها. وذلك بدل الهروب وعدم مواجهة الصعاب وبالتالي التمتع بحياة خالية من المعاناة. وكلامه به رد قوي على من يعترض على سوء الحظ.

هناك أشخاص لديهم وسوسة من أن يَحسدوا أو أن يُحسدوا وهناك أشخاص منبوذين بصفتهم حسودين وقد يكون محض افتراء وظلم وتشويه سمعة لا غير، كلنا فينا حسد كما أن كلنا فينا حب وإخاء. سمعنا ونحن أطفال عن أشخاص يفجرون الإطارات بل ويتحكمون في حسدهم فيصيبوا أي هدف يريدون وهذا أشبه بأفلام سوبرمان ولو كان صحيحاً لاستخدمهم الجيش للقضاء العدو في دقائق.

الحسود يصيبك بالغم والاكتئاب لا غير، والاكتئاب والغم يسببان الأمراض إذا تراكما، ولذلك لا تخف من الحسود ولكن لا تطيل الجلوس أو تتصاحب معه. الحسود يغار من سيارتك الجديدة فيتمنى زوالها وإن لم تزل يأتيك ويحدثك - بشكل غير مباشر غالباً - أن تبيع سيارتك فهي لا تليق بك أو صغيرة على عائلتك فيتأثر عقلك الباطن وتهمل في سواقتك فيحصل لك حادث (لا قدر الله). وإذا لم تتأثر قد تمتد يده لتخريبها مصداق لقوله تعالى **{وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}**، أي إذا نفذ حسده.

الفصل الرابع والعشرون
أُطر فلسفية

بعض الأطر الفلسفية والتي قد تحفز الروح الفلسفية لدى القارئ:

- قمة الشيء قد تكون قاعه وأن النقيضين يجتمعان ويؤديان لبعضهما. فقمة الجنون عقل والعكس، كذلك الكرم الزائد طمع في مدح الناس كما ذُكر، كذلك فإن قمة المثالية واقعية وقمة الواقعية مثالية وهما طريقتان لفهم الشيء نفسه، وأيضا إن المدرسة السلوكية تؤدي للمدرسة المعرفية والمدرسة المعرفية تؤدي للمدرسة السلوكية، النتيجة هي السبب والسبب هو النتيجة، الظاهر لو تعمقت به ستجده باطن والباطن لو سطحته ستجده ظاهر. لا شك إلا في يقين ولا يقين إلا في الشك نفسه، القدر حرية والحرية قدر، والفوتون يدور لأعلى ولأسفل في نفس الوقت. وبأخذ فلسفة جان جاك روسو عن العقد الاجتماعي مع تأميمها وكذلك تفسير كوبنهاغين في الاعتبار.

- لا يوجد ما يسمى أصغر مادة في الكون أو أساس الكون فكلما اكتشف علماء الذرة مكون لا يقبل القسمة سيجدون أنه يقبل القسمة بعد تطور العلم والأدوات، وكما ذَكر غوتفريد لايبنتز (1664-1716): «لا يوجد في الكون ذريتين متشابهتين». ولو قسمت أي ذرة على ما لا نهاية فستعطيك روحاً، فالجسد روح والروح جسد وهما وجهان لعمله واحده، وبأخذ النظرية النسبية ومبدأ التشابك الكمي في الاعتبار.

- الجماد ليس استثناء بل هو كائن ذو روح وأنه يحس ويفكر ويشعر، وعلى الإنسان التوقف عن النظرة المركزية الفوقية على سائر المخلوقات، وبأخذ فلسفة وحدة الوجود

بالاعتبار.

- لا يوجد دافع معين للإنسان فالجنس (كما عند فرويد) هو ليس مجرد جنس بل هو حب وصداقة ومعرفة..... إلخ. والمادة كما يدعي ماركس هي في نفس الوقت قوة وجنس وسيطرة ومعرفة وتشبث بالحياة.... إلخ. والتشبث بالحياة كما عند داروين هو أيضاً حب ومعرفة وجنس.... إلخ، والحب كما عند ابن عربي عبارة عن قوة وجنس وأخلاق وهكذا. فكل الدوافع تؤدي لبعض ويستحيل أن نجزم بدافع رئيس يحرك البشر، وبأخذ نظرية تأثير الفراشة بالاعتبار.

- إن كل قوي هناك أقوى منه وكل ضعيف هناك أضعف منه وأن كل ذكي هناك أذكى منه وكل زكي هناك أزكى منه وكل خطأ هناك أبعد منه وأخطأ وكل صحيح هناك أصح منه فالحدود أوهام، وبأخذ مبدأ تعدد الأكوان بالحسبان.

- إن الحاضر يؤثر على الماضي وبأخذ نظرية الاوتار الفائقة بالاعتبار.

- الفلسفة هي أقرب ما تكون للشِعر من العلم، وأن علم النفس هو أقرب ما يكون للفلسفة من علم الاجتماع. فلتكن فلسفتك مثالية وقلبك مثالي فالكون مثالي ولكن تعاملاتنا اليومية الجزئية تأطر بالواقعية والبساطة فالكل يحب الارتقاء والجزء يحب شبهه. وبأخذ اعتبار نظريات علم الاجتماع.

- على الإنسان أن يتجرد من كل شيء حتى من نفسه. كم مرة فكرت في نفسك في اليوم؟ بل كم مرة في الدقيقة؟ لن تتحرر حتى تحب الكل وتكون محايد، لا إلى الناس ولا إلى نفسك.

- يستحيل معرفة جوهر نفوس الآخرين، وأن الإنسان وإن عرف جوهر نفسه فهي معرفة عبثية وخاوية، لأنه يملك نفس واحدة فقط وبالتالي فالقياس معدوم. وكلٌ يرى الناس بعين طبعه.

- القياس وإن كان يقبل به في مجال العلوم التجريبية والرياضيات ولكنه فيروس خطر،

وعلى الإنسان الابتعاد عن مقارنة نفسه بالآخرين ومقارنة لحظته بلحظاتٍ أُخر وأن يستعجل السعادة الداخلية أو المزاج الجيد، وكان الله غفوراً رحيما.

مراجع:

أحمد الفارابي - محاضرات مسجلة.

يوسف حسين - محاضرات مسجلة.

أحمد زايد - محاضرات مسجلة.

جوزيف بوخيتسكي - مدخل إلى الفكر الفلسفي (ترجمة د. محمد زقزوق) - 1996

الفصل الخامس والعشرون

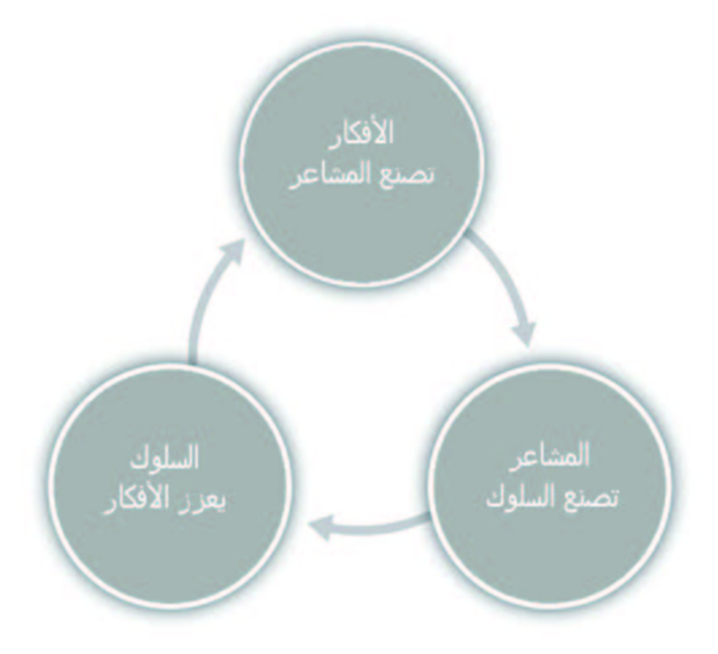
سيغموند فرويد

إن حديث فرويد بشكل عام عن العقل الواعي واللاواعي يبدو منطقياً، ولكن تطبيقاته تبدو غير منطقيه والمشكلة الكبرى في من يظن أنه يقرأ ما بداخلك ويتحكم في عقلك اللاواعي لمجرد أنه قرأ كتاباً أو كتابين في علم النفس. وهناك من يطبق أسلوب الثواب والعقاب بعقله الواعي (وليس باللاشعور أو الطبيعة البشرية) وبالتخطيط مع سابق التعمد والإصرار عليك ليتحكم بك سلوكياً على طريقة السيد سكنير (B. F. Skinner) وكأنك فأر تجارب. أي نعم أنه قد ينجح في كسبك لفترة ولكن علاقة مبنية على أسلوب كهذا هي جزماً ليست علاقة صحية.

في علم النفس الكاتب جد تقليدي فأفضل علاج نفسي عندي هو مساعدة الآخرين والاهتمام بالأكل الصحي والعضوي لأن له تأثيراً كبيراً. كذلك أخذ حمام بارد وشرب اليانسون والتنفس العميق واليوغا وتربية الحيوانات، والاهتمام بالمظهر نوعاً ما، والحصول على أصدقاء جيدين واللعب مع الأطفال والرياضة وممارسة الحب والانشغال بالأعمال المفيدة والأعمال الخيرية وهكذا. لأن الإنسان وحسب رؤية الغالب من العلماء ليس عبارة عن طبيعتين جسدية وروحية بل عبارة عن طبيعة واحده، وأن الإنسان ـ وإن كان الوصف غارقاً في المادية ـ كالآلة لا أقل ولا أكثر، وأن المخ هو مركز التحكم وهو عبارة عن عشرات المليارات من الخلايا العصبية ولذلك فإن أفضل حل لراحة المخ وعمله بشكل جيد ومتسق (أي الصحة النفسية) هو الاهتمام بالبدن (أي الآلة) من تمارين رياضية وتنفس والاهتمام بمركز التغذية والطاقة البطن بالأكل الصحي والابتعاد عن التخمة، كذلك بالتواصل (الاجتماعي) مع الآلات الأخرى والحب وممارسة الجنس الصحية، ثم اليوغا والتأمل والنوم الجيد وممارسة الهوايات كنوع من الاسترخاء والراحة، بالإضافة للمنطق (العلاج الإدراكي

المعرفي) وكذلك القراءة والاطلاع بشكل عام، وعلى أمل أن يساعد هذا الكتاب في المنطق. وأما بعض الكتب الدعائية كقانون الجذب والبرمجة اللغوية العصبية ففيها الكثير من السفسطة والهرطقات وكذلك كتب النجاح. نحن في عصر لا نريد فيه المزيد من الناجحين بل نريد المزيد من الطيبين الأبطال المجاهدين.

إذاً ماذا عن العلاج الإدراكي المعرفي والذي ذكر الكاتب في المقدمة أنه هدف هذا الكتاب؟ هو نفسه تقريباً أو يعد جزءاً من العلاج السلوكي المعرفي (Cognitive behavioral therapy)، وهو وبكل بساطة علاج معرفي سلوكي (إرشادي غير دوائي). على سبيل المثال ومن أساليب العلاج السلوكي المعرفي والذي أعطى نتائج إيجابية كبيرة هو «Normalizing» أو ما يسمى بالتعميم أو التطبيع أو الطمأنة. هل تسمع أصواتاً غريبة؟ نعم. في الحقيقة إن ما يقارب من 8% من الأشخاص قد سمعوا أصواتاً غريبة في فترة من فترات حياتهم وأن أغلبهم قد شفي تماماً. العقل يمكن أن يهلوس بكل سهولة، وإن القلق وعدم النوم أو صدمة نفسية كوفاة قريب وحتى بعض أنواع الأدوية والمخدرات قد تسبب سماع أصوات غير حقيقية. وهذا جزء مما يسمى بالعلاج المعرفي وهو سيطمئنك كثيراً ويخفف من المشكلة والأعراض، أما في حالة الجهل المعرفي فأول ما ستسمع أصوات فسيصيبك القلق والرهاب مما يزيد الأمر سوءاً وستظل تفكر وقد لا تنام لفترات طويلة مما يزيد الأصوات ثم قد تحلل الأمر على أنها أرواح تتحدث إليك أو شياطين وقد تصحبك عائلتك لأحد الدجالين ليصفعك الكف وراء الآخر محاولاً إخراج الجني الذي بداخلك، أو تظن أنها ملائكة وأن الوحي نزل عليك أو أنها كائنات فضائية وهي تقرأ أفكارك لذلك يجب عليك تغطية النوافذ وفتحات الأبواب بالقصدير.....إلخ. سيلعب بك عقلك ومشاعرك ومن ثم سلوكك كل الألاعيب.



ثم وفي مرحلة أخرى - لا يتناولها هذا الكتاب - يجب عليك معرفة أفضل الوسائل والسلوكيات لمجاراة الحالة النفسية أو الهلاوس وتخفيفها، وهو التخفيف من الأصوات عندما تحدث كما في مثالنا. إن الاستماع لموسيقى صاخبه أو لصوت القرآن الكريم بغية التغطية على الأصوات في الغالب يعطى نتائج سلبية ويضاعف المشكلة ولكن القراءة بصوت عالٍ والترتيل ثبت أنها تفيد كثيراً. وكذلك يُفتح الحديث مع الأخصائي النفسي عن الصدمات النفسية ومحاولة إغلاق الجروح النفسية التي ماتزال مفتوحة.

إن الأمراض النفسية الأساسية هي أربعة: القلق والاكتئاب والوسواس القهري والفصام، بالإضافة لمرض المبالغة الشديدة في صفة من الصفات، كالمبالغ في النرجسية أو الفوبيا أو المقامرة فيعتبر مريضاً نفسياً. وإن كل قسم يتداخل مع الآخر وتحته عدة أنواع وفروع، وكل فرع له علاج سلوكي معرفي معين وأن هذا الكتاب وإن تطرق للعلاج السلوكي المعرفي فلجذب الانتباه إليه وإلا فإنه لا يغنى عن المصادر العلمية الدقيقة والجلسات مع الأخصائيين.

مراجع:

صلاح الراشد - السعادة في ثلاثة شهور.

د. عبد الستار ابراهيم - أسس علم النفس- 1988.

Julie Andrews - My Favorite Things.

Mark Manson - The Subtle Art of Not Giving a F***: A Counterintuitive Approach to Living a Good Life - 2016.

الفصل السادس والعشرون
الرأسمالية

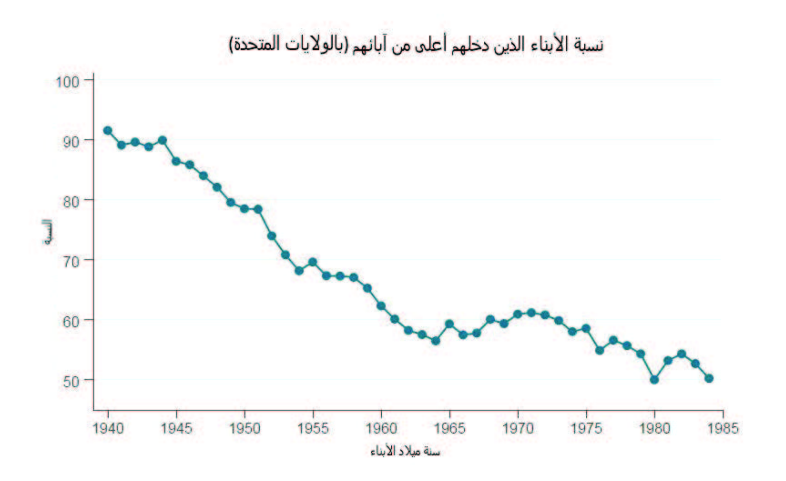
الرأسمالية ليست إلا عبودية صريحة، أنت تعمل طوال اليوم لتستلم راتباً لا يكاد يكفي لأكلك وشربك وملبسك ومسكنك، وربما لسفرة لتنشيط نفسك والعودة للعمل. رئيسك في العمل يتأمر عليك وتبدو ضعيفاً وصغيراً أمامه بدون شخصية وأنت تتأمر على من تحتك، وفِي أي لحظة من الممكن أن تطرد من العمل.

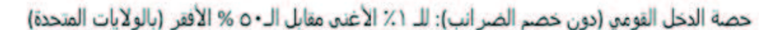
حتى ولو كنت في وظيفة مرموقة وراتبك عالٍ فلا تظن أنك حر أو أنك سيد فإنه وكما ورد عن مالكوم إكس (1925-1965) هناك نوعين من العبيد عبد الحقل وعبد المنزل. عبد الحقل يقوم بالأعمال الشاقة ولا يأخذ إلا الفتات ويكره سيده بينما عبد المنزل يحظى ببعض الترف ويحب سيده أكثر مما يحب السيد نفسه، ويقسو على العبيد الآخرين بدل أن يساعدهم ويدافع عنهم.

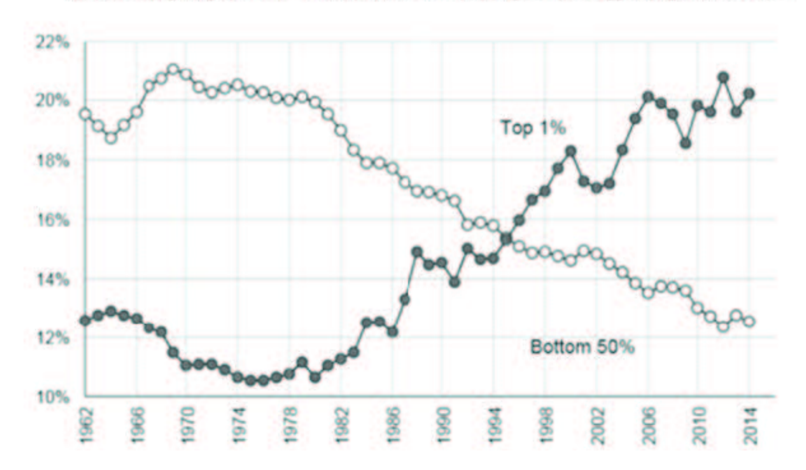
للأسف نحن نعيش في زمن اضمحلت فيه الطبقة المتوسطة والأعمال الصغيرة، وأمسى الناس في فقر وصارت الحاجة شديدة. وذهبت الغالبية العظمى من رؤوس الأموال لعدد قليل من الأغنياء. وظهرت نبوءة كارل ماركس صادقةً إذا تنبأ بأن الرأسمالية ستتحول مع الزمن لرأسمالية متطرفة. وأصبحت الفجوة بين الفقراء والأغنياء شاسعة وتزداد، وأضحى التجار الكبار لا المثقفين ولا حتى البرلمانيين من يحكم البلاد.

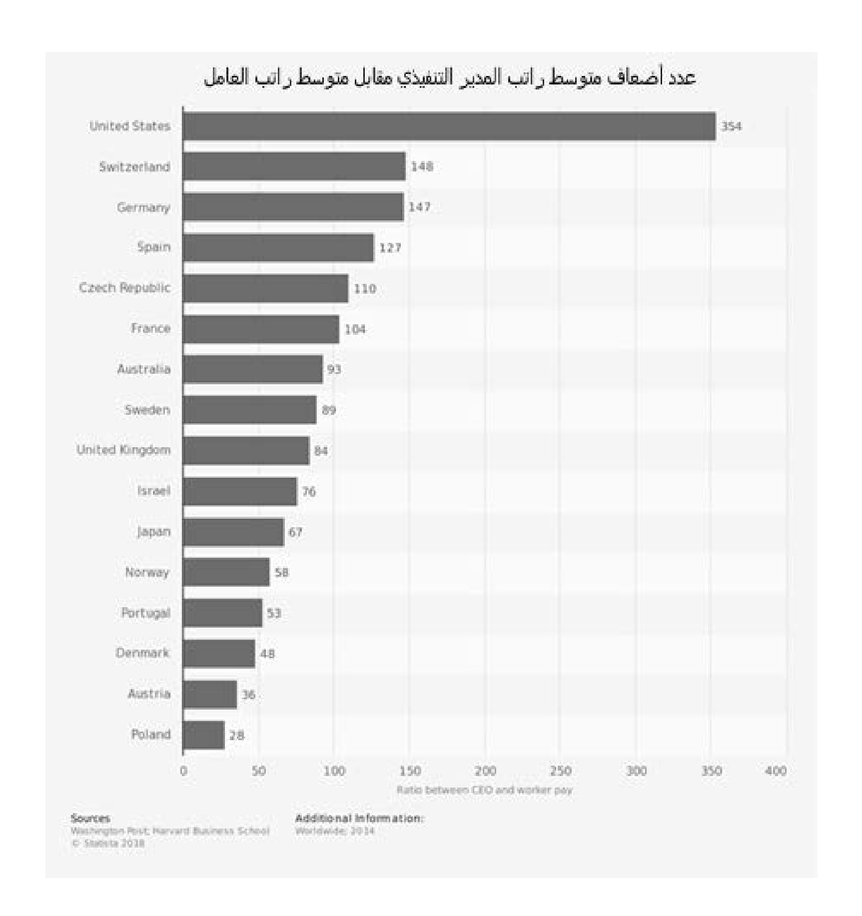
على الحكومات أن تتدخل وأن تضع حداً لهذه المهزلة بأن تزيد الضرائب على الأغنياء وتضاعفها على أصحاب الثراء الفاحش وتعفي الفقراء والمتوسطين، وتدعم المواد والأغذية

الأساسية وتدعم المشاريع الصغيرة وتوفر سكناً وعلاجاً وتعليماً ودعماً لكل مواطن وإلا لما صارت دولة.









مراجع:

Ice Cube - Everythang’s Corrupt.

Brother Ali - Uncle Sam Goddamn.

Michael Jackson - They Don’t Care About Us.

الفصل السابع والعشرون
تصنيف الناس

تصنيف الناس أفضل طريقة لخسارتهم وأسهل سبب يمكن نسجه لظلمهم. ولقد اكتوى الكاتب في حياته بجميع أنواع العنصرية والتصنيفات، فالعلمانيون يعدونني متديناً والسلفيون يعدونني صوفياً والصوفيون يحسبوني سلفياً، والإخوان المسلمون يعدوني عميلاً للحكومة، والحكومة لا تلقي لي بالاً، والسحاقيات يعادونني لمجرد أنني رجل. والرجال يتضايقون لأني أقدس النساء، والعلمانيون يحاربوني لأن ابن خالي من الإخوان المسلمين والاشتراكيون يكرهونني لأن أخي تاجر كبير يظلم عماله، وما ذنبي وأنا شخصياً اكتويت منه والرأسماليون يعدوني اشتراكياً. المسلمون يتضايقون مني لأنني أستوصي بالأقباط خيراً والمسيحيون يظنون أني عنصري أكرههم. الشيعة يعدونني ناصبياً والسنّة يكرهون ميلي إلى الإمام علي، الحشاشون يظنون مكافحتي لهم ومن يكافحهم يحسبني حشاشاً. والمتحررون يكرهونني لاحترام الإرث، والتقليديون يكرهوني لعشقي للحرية، وهكذا.

من ادّعى الحياد فقد كذب، كلنا لدينا ميول لمذهب أو مدرسة معينه ولكن عزيزي القارئ عليك أن تميل إلى الحق أو ما يبدو لك أنه حق حتى إذا بدا لك غير ذلك فواجهه بغض النظر عن أي شيء. والكاتب لديه اعتقاد شخصي جازم أن الإخوان المسلمين وما شابههم من تيارات الإسلام السياسي هم سبب مشاكلنا الرئيسية في العالم العربي والإسلامي وأنهم وراء كل مصيبة وأنهم ماسونية شريرة ترتدي ثوب الإسلام. وهذا الاعتقاد من تجربة الدخول معهم أيام المراهقة ومعرفة خباياهم، وتاريخياً لثبوت أنهم يخونون الكل من أجل مصالحهم ولاستغلالهم الدين والأطفال وتعطشهم للسلطة وعملهم السري ولنفاقهم وفجورهم في الخصومة والكثير غيره.

وأعلم أنا الكاتب أنه قد تصيبك الحيرة عزيزي القارئ وأنت تقرأ كتابي فيصعب عليك تحديد هويتي وفكري إن كنت مادياً أم صوفياً. فتارة أكتب بصورة مادية بحتة وأؤمن بالصراع وأرى بنسبية الأخلاق وتارة أخرى أمجد الأخلاق وأنتقد الرأسمالية وأتحدث عن حسن الظن والإخاء وكأنه نوع من التخبط أو عدم المصالحة مع النفس. والحقيقة أني أرى الحياة كصورة وأن هذه الصورة التي أراها هي مادية حتى النخاع وتتبع قواعد داروين بشكل كبير وقواعد الصراع ونظريات الفيزياء والفلسفة الواقعية وقواعد علم الاجتماع وعلوم الطبيعة وتقديم العقل على النقل وما تنص عليه الأدلة العلمية والعلماء. ولكني أؤمن أن لهذه الصورة إطاراً وأن هذا الإطار هو الحب وما عليه من جمال الصفات، وأن إيماني هذا لا ينشأ عن أي دليل علمي ولا يحتاج لذلك، ويصعب وصفه ولكن هو إحساس في القلب ونظارة أرى بها الأشياء، ولهذا سمي إيماناً، وأن هذا الإطار هو ما يعطي الجمال للصورة والتي بدونه ستكون باردة نوعاً ما. وإنك قد تسمي هذا الإطار الروح القدس أو الناموس الإلهي أو الله أو بوذا أو سنة الحياه أو وعي الكون أو الأنا العليا أو القطب الغوث، سمه ما شئت، ثم إن نظرية الكم هزت النظرة المادية البحتة أيما هزة وتركتها مصابة في العراء.

مراجع:

Malcolm X - 1992.

Tupac - Only God Can Judge Me.

الفصل الثامن والعشرون
جدلية الحرية والمواطنة

المواطنة ليست إلا سجناً كبيراً وتحكماً لا محل له واستعباد. وكلام الإخوان المسلمين والقاعدة مبني على الصحة بأن المواطنة اختراع استعماري وأن الإسلام أو المسيحية كما في الغرب والأديان أسمى من كل الأوطان.

دولتك تمنع عنك السفر إلا بإذنها والدول الأخرى لا تسمح لك الدخول إلى أراضيها إلا بشروط وإذن، حتى الحب والزواج، دولة تسمح بزوجة، دولة أخرى تسمح بزوجات أربعة، دول أخرى لا تسمح بالزواج من غير المواطنين. لا يصح لك حتى أن تفتح بسطة لبيع الشاي إلا بتصريح من الحكومة عدا عن منافسة كبار التجار. ستكون محظوظاً نوعاً ما لو ولدت أوروبياً بحيث يمكن التجول في جميع أنحاء العالم وستحظى بتعليم ورعاية صحية جيده أما لو كنت إفريقياً أو شرق أوسطياً فستفرض عليك أنواع القيود وستواجه العديد من التعقيدات. دولة تعتبر تعاطي المخدرات جريمة وأخرى تباع فيها المخدرات وعلى مرأى ومسمع من الشرطة في المحلات وفي وضح النهار. دولة ترسل أبناءها ليقاتلوا ويقتلوا من أجل لعبة سياسية، ودولة ترسل قنبلتين نوويتين لتبيد مدينتين كاملتين بمن فيهما من العجزة والنساء والأطفال وتنشر إشعاعاً نووياً لمئات السنين يسبب التشوه والأمراض. حروب وراء حروب وظلم وتحكم وراء تحكم.

والكلام يشبه كلام توماس هوبز (1588-1679). يرى هوبز أن الدولة هي تعاهد قائم على القهر وأن العقد الاجتماعي هو عقد إذعان، وأنه بقيام الدولة يتنازل الفرد عن حريته وعن كثير من الأمور، ولكنه يضيف أن ذلك مقابل الحفاظ على السلم والاستقرار. افترض هوبز أنّ الإنسان في مرحلة ما قبل المجتمع يتركز اهتمامه على المصلحة الذاتية، ومع وجود مصادر محدودة وغياب

سلطة تجبر الأفراد على التعاون، استنتج أن الحياة في مثل هذه البيئة ستكون صعبة التحمل وقاسية جداً، بحيث يخشى كل فرد على حياته من الآخر، ولا يستطيع أحدهم ضمان تلبية حاجاته ورغباته لمدة زمنية طويلة، وعليه استنتج أن مرحلة ما قبل المجتمع تحوي أسوأ ظروف يمكن أن يعيشها الإنسان، مما يطرح وبقوة ضرورة تكون التجمعات البشرية والقوانين. وربما لا يتفق الكاتب مع هوبز لأني أرى أن الأصل في الإنسان البدائي الخير كما يرى أغلب العلماء والمفكرين ولكنه بالفعل وبدون سلطة حاكمة فإن الخوف والتطرف والجهل وقلة المصادر ستؤدي إلى فوضى عارمة، وأكبر دليل على ذلك ثورات ما يسمى بالربيع العربي وأغلب الثورات، فقد أدت لحالة من الفوضى أو تردي الأوضاع على أقل اعتبار.

إذاً المواطنة كمفهوم هو مفهوم خاطئ وظالم وأن البشرية لم تصل لمعنى الحضارة الحقيقية بعد ولكن انتشار الفوضى أخطأ وأظلم. فعلينا أن نجهز أنفسنا بمرحلة انتقاليه لعشرات أو ربما لمئات السنين عن طريق التربية والتعليم والتحضر ونشر السلام والحريات، فهناك دول حققت نجاحاً ملحوظاً كالدول الإسكندنافية حيث إن لديهم ديمقراطية جيدة وشيوعية في الحكم وسجوناً نظيفة وقضاءً على درجة جيدة من الاستقلال ومنظمات حقوقية فاعلة وطبقة وسطى سائدة، والحكومة هي لإدارة الأمور لا أكثر. والمراد أنه علينا أن نكون معول بناء دائماً لا معول هدم، وكما جاء على لسان الأمير تركي الفيصل: «We need an evolution not a revolution»، أي أننا بحاجة لتطور لا لثورة.

كان الإنسان يحارب من أجل القبيلة ثم من أجل الدين ثم من أجل الدولة، والحرب مكروهة بغيضه أينما كانت. وداعش والإخوان وإن كان مبدأهم صحيحاً وهو فساد مفهوم المواطنة إلا أنهم سيقيمون مواطنة أخرى أكثر شده وظلماً وتقيداً للحريات باسم الإله ويقتلون ويسفكون كما أن الصالحين والعلماء قد قتلوا، وهُدمت الكعبة واحتُلت البلاد وأُبيدت الشعوب باسم الخليفة، خليفة الله، وكما أن الأتراك أحتلوا أرضنا وأدخلونا في عصور من الظلام باسم الدين.

من المعروف إن النقد أسهل بكثير من الفعل فقد جلست مع الكثيرين ممن يحللون رياضياً وينتقدون أشهر لاعبي الكرة في العالم وببراعة ولكنهم لا يستطيعون فعل عُشر ما يفعله، وجماعات الإسلام السياسي يستغلون هذا الشيء فيجيشون الشعوب ضد الحكام. هناك العديد من الحكام في المنطقة - والمنطقة العربية شديدة التعقيد - يبلون بلاءً حسناً أو معقولاً بينما الإخوان عندما حكموا

في أفغانستان ومصر والسودان جلبوا الدمار لتلك البلاد في مدة قصيرة من الزمن. لقد اطلع الكاتب على مقال صحفي قديم وبحثت عنه بعد ذلك ولم أجده ولكنه رسخ في الذاكرة لجماله وبساطته فأعدت كتابته بأسلوبـي وأضفت عليه بعض البهارات (الكثير من البهارات). اسم المقال معضلات أحزاب الإسلام السياسي:

- الهرم المعكوس: جماعات الإسلام السياسي لديهم تعطشاً شديداً للسلطة، لأنهم يعيشون على وهم أنه لو صلح الحاكم صلح الجميع. وهو رأي لايبنتز وفولتير ولكنه رأي قديم ومفند، فالحاكم على قدر ما يقود الجماهير على قدر ما الجماهير تقوده، والسياسة لعبة معقدة تشمل المجتمع والضغوطات الخارجية والإعلام والمؤسسات وغيرها، وأن أي حاكم عادل لم يأتِ وعلى مدى التاريخ من فراغ بل من مجتمع هيّأ له الوصول. والإخوان بالغوا في ذاك الرأي فتجد الإخواني جاره جائع وشارعه ومسجد حارته متسخان وأقاربه يتصارعون وابنه المدلل يدرس في مدرسه أمريكية. يظلم الآخرين ويتآمر عليهم في اجتماعات سرية مع جماعته ويعذبون ويضغطون ويغتالون. وهم أيضاً كالسوس ينخرون في كل القطاعات الحكومية والأهلية ويتخابرون مع أمريكا وتركيا وإيران وكل ذلك لإقامة دولة العدل والمحبة، أي عدل ومحبة تلك!

- سنية أم شيعية: ولنقل أنّا مع إقامة دولة إسلامية، لكن هل الإسلام الصحيح هو السني أم الشيعي أم الأباضي أم المعتزلي أم الدرزي؟ السني بالتأكيد! فهل هو الصوفي أم السلفي؟ وماذا نفعل بالشيعة وغيرهم؟ وهل في ذلك ظلم لهم أم نعطيهم دولة منفصلة بصفتهم غير مسلمين؟! أم نجبرهم على التسنن؟! وإذا كانت سلفية فهل هي جامية أم سرورية أم جهادية أم من أهل الحديث أم من المحتسبه؟ وإن كانت جهادية فهل على نهج جبهة النصرة أم القاعدة أم داعش؟ ستقول الجواب سهل على كتاب الله وسنة رسوله. الجواب أن كل هؤلاء يدّعون أنهم على كتاب الله وسنة رسوله وكلهم يكفرون أو يفسقون بعضهم البعض. وماذا نفعل بالخلافات الفقهية المعقدة في الأحكام، فالقرآن حمال أوجه، والدين علاقة بين العبد وربه ولا يتفق عليه شخصان.

- عزلة تامة أم تميع الدين والتعامل بالحرام: المشكلة أن الكثير من القوانين والأعراف

الدولية تخالف الشريعة صراحةً. والسياسة في غالبها لعبة قذرة لا تعترف بالأخلاق والشيم. فجرُ الإسلام لهذه اللعبة يقود لتميع الإسلام أو لدولة منفصلة منعزلة عن العالم. كذلك فإن خلط الدين بالسياسة لا يضر بالسياسة فقط بل يضر ويتعدى على الدين في المقام الأول. يعتقد البعض وللأسف أن الخلافة هي التي حفظت الدين بينما واقعاً ولا سيما الخلافة الأموية أكبر من أضر بالدين وشوهه. إن الدين الإسلامي أكبر من الدول وأكبر من الحدود وأكبر وأطهر من السياسة، إن الدين الإسلامي حب عابر للقارات.

- هل غير المسلمين مواطنون درجة ثانية؟ وماذا عن المسلمين الذين يعيشون في دول غير إسلامية؟ وأين سيكون ولاؤهم؟

- غياب الكفاءات: أثبتت جميع حركات الإسلام السياسي أن لديهم نقصاً في الكفاءات وفشل في الإدارة وأنهم شديدو العنصرية بحيث لو حكموا لا يسمحون إلا لمن يحمل توجهاتهم بتولي المناصب.

- استغلالهم للأطفال: فأنت وبكل براءة وعن حسن نية ترسل أبناءك لتحفيظ القرآن لكي يتعلموا القرآن وإذا بهم يدرسونهم رويداً رويداً عن روعة الشهيد حسن البنا وصفاته وأعماله، ويتحدثون عن تردي الأوضاع في البلاد وعن تردى الإعلام، وأن جريدة الشرق الأوسط خضراء الدِمَن وأن د. غازي القصيبي يعادي العلماء الأجلاء، وهكذا. ويزرعون في عقول الأطفال والمراهقين ما لا يقوى على حمله الكبار.

- تطبيق الشريعة (الإجبار على الأحكام) سيصنع جيلاً من المنافقين: والنفاق أشد من الكفر، ثم سيأتي الخِلاف: ما هو حجاب المرأة وهل الوجه والكفان عورة وهل الشعر عورة وهل تجوز العباءات الملونة ولبس البنطلونات وما هو سن البلوغ وسن اليأس... إلخ.

- ادعاؤهم الطهارة والحق ورمي كل من يعارضهم بمعارضة الاسلام والنفاق، ومن ثم جواز مضايقته أو حتى قتلة لو وقف في طريق الدعوة (جماعتهم)، وكأنهم يحتكرون الإسلام.

- الإخوان المسلمين هي الجماعة الأم، وبوابة للجماعات الأكثر تطرفاً: على سبيل المثال أشهر رموز القاعدة: عبد الله عزام، أسامة بن لادن والظواهري كانوا منتمين للإخوان ويفتخرون بذلك. كذلك فإن الإخوان عادةً ما يغضون الطرف عن القاعدة والنصرة وحزب الله وداعش، بل وهناك الكثير من الدلالات على تواصلهم السري. والكاتب يرى أن ضرر الإخوان المسلمين أكبر من ضرر داعش لأن داعش واضحين صريحين يجاهرون بالعنف والتكفير بينما الإخوان مراوغون يستخدمون الخطاب الناعم والكذب.

- تاريخاً، الخلفاء لم يكن سجلهم حافلاً كما تصوره لنا الأفلام والكتب المدرسية إلا ما ندر منها: فلان الحاكم قتل أخاه وفلان تحالف مع الفرنجة ضد المسلمين واغتيالات بالجملة وجوارٍ بالآلاف وشذوذ وخيانات... إلخ. المشكلة الرئيسية والتي تجعل شخص يفجر نفسه من أجل دولة الخلافة ليست الفقر أو الحور العين ولكن الحلم المثالي بخلافة كخلافة عمر بن عبد العزيز بحيث أنه لا يوجد فقير يَقبل الزكاة، وكان يتخفى كل ليلة ليبحث في حال الرعية ويطيل البكاء، ويفتح البلاد لمجرد نشر العدل والحريات والإسلام، ولو تعثرت بقرة في البصرة وكُسرت رجلها لعَلم بها وساعدها. المشكلة أن كتبنا الدراسية مليئة بمثل هذه المبالغات ولا تتعامل مع التاريخ بموضوعية. مما يعزز موقف الجماعات الإسلامية لدى العامة، وكأننا نحاربهم من جهة وندعمهم من جهة.

- مفهوم الخلافة هو مجرد رأي فقهي: وليس كما يصوره الاخوان ركن من أركان الإسلام أو جزء من العقيدة. والرسول كان معلماً ولم يكن حاكماً وحتى لو كان حاكماً فإن له وحي يأتيه من عند الله. ألم تسأل نفسك يوماً عزيزي القارئ لماذا لم يحدد الرسول عليه وعلى آله السلام ويكتب صراحة لحاكم من بعده؟ ألم تفكر يوماً بأنه أراد أن يكون الإسلام دين محبه بلا خليفة (حاكم). ألا تتوقع عزيزي القارئ أنه باستطاعة الأمويين أن يضعوا حديث أو حديثين أو قل ألف وألفين وكتب للسيرة لتمجيد الخلافة والغزو والعنف وعلى مزاجهم.

للأسف إن الإخوان المسلمين هم كدولة داخل دولة ولهم قوة كبيرة وتمكن وعملاء نائمون في كل الوزارات والهيئات وعلى أعلى المستويات. هناك قول مشهور لحسن لبنا: «أن فكرة الإخوان المسلمين نتيجة الفهم العام الشامل للإسلام، قد شملت كل نواحي الإصلاح في الأمة، فهي دعوة سلفية، وطريقة سُنية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية»، وهناك رد مشهور للملك عبد العزيز آل سعود عندما رفض طلب فتح فرع للإخوان المسلمين من حسن البنا، قال: «كلنا إخوان، وكلنا مسلمون». لقد تم نصح الإخوان المسلمين مراراً وتكراراً ومن قبل كبار العلماء والفقهاء: تخلوا عن كلمة وهيئة سياسة فقط، اتركوا السياسة والعمل السري والاغتيالات، وسيكون مرحباً بكم من الكل. إن ما تفعلونه من حصر الإسلام في جماعة سياسية سرية هو حرام بكل المقاييس. عندما أرسل ابني لتحفيظ القرآن فأنا أريده أن يحفظ القرآن ويتعلم بعض الأحاديث والأخلاق، لا أن يكون معارضاً حكومياً ولاؤه للمرشد العام، أو أن أكتشف أن أخي يتجسس علي ويسرب معلومات حكومية أخبرته بها عن حسن نيه لمكتب لإرشاد، ولا أريده أن يعاديني لأني لا أحب جماعة الإخوان المسلمين ولم أقتنع بها أو لمجرد أني أعمل في خدمة الحكومة.

الكاتب لا يجامل الحكومات أو أقول إنهم ملائكة، الحكومات طبعا لديها جهاز تجسسي وتمارس الضغط والحيل السياسية وقتل الجواسيس وغيرهم، لكنها لا تفعل ذلك باسم الطهر والإيمان والكمال، لا تفعل ذلك باسم الإسلام بل تفعل ذلك بمقتضى الظروف والمصلحة. كما أوردت إن المواطنة كمفهوم هو مفهوم خاطئ وظالم وأن البشرية لم تصل لمعنى الحضارة الحقيقية بعد ولكن انتشار الفوضى أخطأ وأظلم، وكذلك أن يكون هناك جزء من الأرض أو دولة للمسلمين وجزء من الأرض للكاثوليك، وهكذا. المشكلة الأساسية أن هناك من يعتقد أن الإسلام سيدخل كل بيت بالحسنى أو بالقوة ثم تعيش الكرة الأرضية تحت حكم خليفة العالم المهدي العادل الأوحد لوجود بعض الأحاديث المشكوك في صحتها والإسرائيليات، وينسون سنة الله في الناس وصريح القرآن: **{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}**.

مراجع:

علي عبد الرازق - الإسلام وأصول الحكم - 1925.

الشيخ عبد الله بن بيه - الولاء بين الدين وبين المواطنة.

الشيخ عبد الله بن بيه - الاندماج الإيجابي والمواطنة.

السيد أياد جمال الدين - محاضرات مسجلة.

الفصل التاسع والعشرون
العلمانية والإسلام

العلمانيون المسلمون وبكل صراحة منافقون سواء في إسلامهم أو في علمانيتهم، فالإسلام ليس كأغلب الأديان، طقوس وعبادات ونصائح فقط، بل يتضمن شريعة وأحكاماً ونظاماً سياسياً واجتماعياً وقانونياً ويستحيل به فصل الدين عن المجتمع أو عن الدولة. المشكلة أن هناك تعارضاً يقع أحياناً ما بين القرآن والحديث من جهة وميثاق حقوق الإنسان وميثاق الأمم المتحدة وبقية المواثيق والأعراف من جهة أخرى. والناس ذهبوا في ذلك أربعة مذاهب: قسم تجاهل الإسلام وكفر به فأنتج أناساً متغربين معادين للتقاليد وللمجتمع. وقسم تجاهل المواثيق والأعراف وكفر بها فأنتج القاعدة وداعش، وقسم أوّل بزيادة وميّع الكلام الصريح فظلم اللغة واستخف بعقول الناس كالذي سمعه الكاتب يتحدث في التلفاز يقول: «فاضربوهن أي من الإضراب أي الاعتزال»، بينما الكلام واضح وصريح في الآية أي ضرب الرجل لزوجته. والقسم الأعظم من المسلمين فضّل عدم الخوض في مواضيع كتلك وسعى في طلب رزقه.

أي نعم إن تجديد الفكر الديني أصبح ضرورة ملحة وخصوصاً في زمن يتعرض فيه الإسلام لموجة انحراف وردة من الداخل وموجة تشويه وضغوطات من الخارج. ولكن أبسط وأسلم حل للتجديد ليس في العلمانية أو في تأويل القرآن تأويلات زائدة ولا في المذاهب كالقرآنيين والجهمية والمعتزلة الجدد. إن أبسط حل موجود في كتب التراث والسلف ولكن ينقصه بعض الاهتمام وهو أسباب النزول، ويندرج تحته علم المقاصد وقاعدة اختلاف الفتيا باختلاف الزمان والمكان.

إن معرفة أن كل آية نزلت في مكان معين وزمان معين وظرف معين يساعد كثيراً، فالجهاد على سبيل المثال كان مقدساً في ذاك الزمان إذ إنك إن لم تغزُ فستُغزى لا محال ويُقضى عليك. أما اليوم فالظرف مختلف فهناك دول وحدود واتفاقيات. وجارك أو زميلك في العمل قد يكون على ديانة أخرى أو كفر ولا يحق لك بالطبع قتله. ولكن مقصد الجهاد لم يُمح فالدولة يمكنها أن تجاهد بتحصين قوتها العسكرية والدفاع عن القضايا الإنسانية ونصرة المظلوم من خلال القنوات السياسية ونشر سماحة وقيم الإسلام والاهتمام بالمنظمات والهيئات الإسلامية واللغة والثقافة والتراث والمساجد. وأنت عزيزي القارئ يمكنك أن تجاهد بحسن خلقك وكرمك ولين طبعك لأنه حالياً ومما لا مجال للشك فيه إن الشدة والعنف ستُنَفر الناس من الإسلام. كذلك قطع يد السارق كانت معقولة إذ أنه لا يوجد سجون في ذاك الزمان والمكان، كما أن حديث إرضاع الكبير يُعد من الصحاح ولكن العلماء أفتوا أنه حالة خاصة في ظرف معين ولا يجوز تعميمها. وكما أن العبودية أُلغيت من جميع الدول الإسلامية على الرغم من ذكرها في القرآن ووافق على ذلك كبار المشايخ. وليس المراد هنا هو أن القرآن لا يصلح لكل مكان وزمان بل على العكس تماماً فهو ليس بجامد ومتحجر بل فيه مرونة وكلٌّ يغترف منه، ومرونته دليل على أنه يصلح لكل مكان وزمان.

ليس هذا وحسب بل إن تجريد القرآن من أسباب النزول يسبب تناقض آياته. فمثلاً عندما كان الرسول في مكة وكان الناس في مجتمع واحد وجيران كان المراد تخفيف حدة الصراع جاءت آيات مثل **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** ولكن عندما أنتقل إلى المدينة وصارت الأمور دولة ضد دولة وكان صناديد قريش يتربصون لغزو المدينه، إما أن تَغزو وإما أن تُغزى فكانت الآيات مثل **{فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**. فعندما فهمنا أسباب النزول زال التناقض الظاهر، واليوم الأمور والأسباب والمعاهدات والثقافة بالطبع تدعو للتقارب والسلام وعدم الإكراه وتخفيف حدة الصراع.

مراجع:

الشيخ عبد الله بن بيه - مشاهد من المقاصد.

الفصل الثلاثون

البيئة والكون

الحفاظ على البيئة ليس بطرفه أو مذهب مثالي بل ضرورة ملحة، ويجب أن يكون أولى أولوياتنا حكومياً ومؤسساتياً وأفراداً وقَبل كل شيء. لقد آن الأوان أن نستيقظ، انظر حولك: الأرض تتدمر والخضار قَل والثروة الحيوانية والبحرية من سيئ لأسوأ والجو لم يعد صافياً والاحتباس الحراري... إلخ. أي نعم الكمال لم يكن لأحد ولكن يجب علينا أن نجتهد بنشر الوعي وبالفعل ولو بالقليل. يتوقع عالم الفيزياء المشهور ستيفن هوكينغ (Stephen Hawking) أن الأرض لن تعود قابلة للسكن خلال ألف عام إن استمرينا على نفس النمط وأننا في الفصل الأخير للأرض.

هناك جزء كبير من علم الاجتماع يتحدث عن التغير الاجتماعي وكيف تطورت المجتمعات من الأسرة البسيطة التي تقوم بالزراعة ومتكاتفة ومكتفية إلى التطور الصناعي والنقابي والمؤسساتي والبيروقراطي والإلكتروني مؤخراً. وأغلب علماء الاجتماع يساندون التطور ويجعلونه هدفاً ولكن هناك من ينتقد هذا التطور بما يسببه من تدمير للبيئة وتفكك الأسرة وتكلف الأصدقاء وغرابة الجيران وعشر ساعات من الدوام واكتئاب عام وضعف بدني وغيره. والكاتب يقف على الحياد فللتطور إيجابيات وسلبيات بل وأميل إلى التطور لأن كل سلبية ستحل عاجلاً أو آجلاً إلا السلبية الوحيدة وهي تدمير البيئة. فمتى تدمرت البيئة أو أنقرض حيوان فإنه من الصعب أو المستحيل عودته.

وأما عن احتمال وجود كائنات حية على كوكب آخر فهو شبه أكيد حسابياً، على الأقل على شكل بكتيريا أو وحيدات خلية، فالأرض كحبة رمل في شاطئ بالنسبة للكون بل وأصغر. ولربما

تطوروا عنا بملايين أو مليارات السنين، ولكن السؤال هل وصلوا إلينا؟ ومن حكم أن الجمادات ليس لها روح؟ لأنها قاسيه لا تتأثر فهناك قلوب أقسى من الصخر.

لنفرض أن هناك كائنات فضائية من كوكب ما ولنسمه كوكب س قد جاؤوا إلى الأرض من آلاف أو ملايين السنين أو أنهم موجودون حالياً ولا أحد يعلمهم ويتحكمون ويؤثرون في الأرض وما نحن إلا كعبيد أو كمجموعة من القرود تلهو في قفص بالنسبة إليهم وأن التطور الحاصل في الأرض هو شيء يشابه ما حصل في كوكبهم منذ ملايين السنين ولا نعلم إذا كان هدفهم نبيلاً أم العكس. ليس هذا وحسب بل ماذا لو أن الكوكب الذي يتحكم بنا وهو كوكب س هناك كوكب آخر يتحكم به أو على الأقل يرى ويراقب ما يفعله على أرضنا ولنسمه كوكب ص وأن كوكب ص قد فاق كوكب س بملايين السنين. ليس هذا وحسب بل ماذا لو أن أجدادنا قد فاقوا كوكب ص بملايين السنين وكانوا يتحكمون بهم وهم لا يعلمون وزرعوا فيهم العديد من الأفكار. ثم قرر أجدادنا في يوم من الأيام أن يمحوا كل أثر للتطور والعلم ليعيشوا حياة الطبيعة والبساطة. فنستنتج مما يلي أن الاستعباد ليس إلا وهماً، ومن تظن أنك تستعبده فإنه حر وأنك لا تستعبد إلا نفسك بجهلك وغرورك. وكذلك مراقبة الآخرين فلا تدري من تراقبه وتتجسس عليه لعله يراقبك من حيث لا تعلم.

آخر دلائل الفيزياء وكما ورد تشير أنه هناك عدد لانهائي من الأكوان وليس مجرد كون وحيد. والقول باللانهاية له معنى فلسفي عميق جداً ومجنون، وهو أن هناك وعلى وجه اليقين شخصاً مثلك في كل شيء في كون من الأكوان إلا أنه لم يقرأ هذا الكتاب أو ربما كان موسيقياً مشهوراً أو أنه أطول منك بخمس سنتيمترات فقط. كل شيء ممكن في أي كون من الأكوان إلا الخلود لأن كل كون له بداية وله نهاية ومن ثم ولادة من جديد وما عدا ذلك فأي شيء تتخيله هو واجب الوجود كوجود كوكب يدور حوله مليون قمر وأحد هذه الأقمار يتكون من الجبن الأصفر، وأن أي فيلم خيال شاهدته قد حدث بالفعل في كون من الأكوان وهكذا. المشكلة أنك لو افترضت أسوأ الاحتمالات فستكون صحيحة كالاحتمال الأسوأ أنه هناك كون من الأكوان تسيطر عليه قوة شريرة سيطرة تامة بحيث تكون كإله شرير ومخادع يدخل الأشرار الجنة ويزج بالطيبين في النار.

إن الإنسان ولد وهو يعرف كل شيء كصفحة زرقاء، ثم ومع التجارب يبدأ باستبعاد أشياء فكأنما يمحو جزء من الحبر الأزرق وهكذا حتى تتكون كلمات وجمل في صفحته. كرة بلياردو تصطدم بأخرى فسيعرف الإنسان البالغ ومن التجربة أن الكرة التي كانت ساكنة ستندفع للأمام

والأخرى ستتجه عكس الاتجاه الذي كانت تسير فيه وسيستبعد أن تتداخل الكرتان أو تختفيان، ولكن في الحقيقة وبسبب مبدأ تعدد الأكوان فإنهما قد تتداخلان أو تختفيان وأن الإنسان المولود على الفطرة يملك الحقيقة كاملة ويعرف كل شيء والتجربة والقوانين والأعراف تمحو المعرفة.

مراجع:

Into The Wild - 2007.

Bob Marley - Sun is Shining.

The Fabric of the Cosmos: Universe or Multiverse (Documentary).

الفصل الحادي والثلاثون

جوجل مثالاً والاستخبارات

حسناً، أعلم أن الكلام عن الماسونيين يبدو سخيفاً ولربما هم ليسوا إلا جمعية خيرية، وأعلم أنه من السخيف القول إن أصحاب المليارات وملوك الإعلام يفكرون في تدمير الإسلام أول شيء يفعلونه بعد الاستيقاظ من النوم صباحاً، ويجتمعون أسبوعياً في ورشة عمل عنوانها: «كيف ندمر الإسلام». تأكد عزيزي القارئ أن الهدف الرئيسي لأي مؤسسة هو جني المزيد من الأموال. ولكنني كنت كثيراً ما أتأمل تصميم واجهة اليوتيوب والفيديوهات المقترحة وترتيب التعليقات، هي عبارة عن عبث وغباء وعدم منطق في اللوغاريتمات لا يقوم به طفل صغير تعلم البرمجة. لو سألت أي تقني صادق وواعٍ سيخبرك بنفس الكلام ولكن لا يوجد بديل قوي لليوتيوب - في اللحظة التي أكتب فيها هذا الكلام - إذاً ما هو السبب؟

هناك عدة أسباب محتملة وقد تكون مجتمعة. الاحتمال الأول، والأشهر هو أن اللوغاريتمات في الفيديوهات المقترحة والواجهة لا تعمل من أجل ذوقك أو أنها تهتم بما تحب أن تشاهد، كل ما في الأمر أنها تحاول نشر الفيديوهات ذات الإعلانات مرتفعة السعر وزيادة المشاهير شهرة.

الاحتمال الثاني، أن الفوضى في الواجهة والاقتراحات متعمدة لأنها حيلة نفسية تزيد من الإدمان على الموقع -لأن الواجهة والاشتراكات والاقتراحات لو كانت مرتبة فستشاهد ما ترغب في مشاهدته فقط ولن تضيع وقتك في مشاهدة المشاهير والفيديوهات التافهة - كذلك إن الفوضى في اليوتيوب ستؤثر على حياتك ولو بشكل طفيف وستخلق فوضى في حياتك مما يزيد إدمانك على اليوتيوب. وهناك أيضاً علاقة عاطفية تنشأ بينك وبين الموقع ولوغاريتماته وهذه العلاقة ليست من النوع الصحي مثل الأصدقاء الذين يتواصلون مرة أو مرتين أسبوعياً، ولكنها أشبه بالعلاقة مع

الابن المشاكس الذي تتصل به كل ساعة لتطمئن وتتمنى أن يستقيم وتدعو له كل يوم، ولكنه للأسف لا يتغير ولا يتأثر بنصحك.

الاحتمال الثالث، قد تكون لهم ميول وأجندة فهم يرغبون في نشر ودعم عقائد معينة غير عقيدة المال، كما هو معروف أن قناة فوكس الأمريكية لديها ميول واضحة للحزب الجمهوري وتمرر أجندته. قد يكون موقع يوتيوب والمالك من وراءه غوغل لديهم أجندة جمهورية أو ديمقراطية أو رأسمالية بما أن الرأسمالية تفيدهم أكثر في الربح، أو ربما كانوا عنصريين يميلون للعرق الأبيض بما أنهم أمريكان، أو ربما يحملون أجندة صهيونية لسيطرة الصهيونية على أمريكا بشكل عام ولأن المالك يهودي. أذكر أني شاهدت فيديوهات لمعارضين حكوميين ثم صار يأتيني من هذا النوع في الفيديوهات المقترحة ولكن بكثرة غير منطقية ولا نسبة وتناسب منطقي مما أثار لديّ الكثير من الشكوك. لا تظن أنهم أغبياء عزيزي القارئ بأن يبرزوا كل فيديو يكون به ضرر على مصر أو الصين أو غيرهما يدوياً، إن في ذلك إضاعة للوقت وجرم واضح وربما فضيحة مجلجلة لو انكشف الأمر. كل ما في الأمر أنهم يعطون أولوية لوغارتيمية وتحت أي ذريعة لبروز الفيديوهات المسومة بالسياسة والدين للمشاهدين من إقليم كالإمارات ومصر ومن الطبيعي أنه لا أحد يخلط الدين بالسياسة كما الإخوان المجانين.

الاحتمال الرابع، أننا نتعامل مع شركة يقودها مجموعة من الأوغاد السايكوباث الذين يحبون أن تشيع الفاحشة والفسوق والخوف والفوضى بين الناس. هل يبدو الكلام مبالغاً فيه؟ لا ليس مبالغاً فيه. ألا تذكر رئيسك في العمل الذي كان يصدر قرارات واضحة الغباء لا تفيد الشركة ولا العملاء ولا الموظفين ولا أي أحد إلا من أجل التخريب. نفس الشيء ولكن جوجل أصبحت أكبر شركة تتحكم في العالم.

هناك العديد من الاحتمالات التي تفسر الأمر ولطالما ظلوا يخفون شفرات البرمجة عن العامة ويرفضون الشفافية فكل الاحتمالات مفتوحة. إن الشفافية هي أخت النظام والسلام، وإن الرجل السيئ من جاسوس أو مرتشٍ أو غيره لا يعيش إلا على الفوضى، فلو كان الجو العام يسوده الهدوء والسلام والسكينة فسيكون عارياً ويُكشف بكل سهولة.

الأمر ليس فقط في اليوتيوب بل كذلك الأمر في لوغاريتمات محرك البحث جوجل فهي لم تتطور منذ سيطرة جوجل على السوق بل هي في تطور واضح للأسوأ. الأمر الآخر هو أن أقوى

قوة استخباراتية في العالم لم تعد بيد السي آي إيه أو المخابرات الروسية بل بيد شركة جوجل. إنهم يعلمون لو أرادو مراقبتك كل تحركاتك عن طريق خرائط جوجل وماذا تشاهد وما هي ميولك السياسية والجنسية وإسلامك من نفاقك ومن هم أصدقاؤك المفضلون وما هي توجهاتهم. بل وماذا تحدثت مع عائلتك وماذا تلبس اليوم عن طريق ميكرفون وكاميرا جوالك الأندرويد. بالطبع ما لم تكن وزير دولة أو شخصاً مؤثراً فلا داعي للتنصت عليك شخصياً. ولكن أيضاً هناك لوغاريتمات إحصائية احتمالية تحليلية يمكنها أن تعطي معلومات شبه دقيقة وبمساعدة من علماء نفس واجتماع واحصاء وخبراء عن عدد الملحدين في مصر أو أين يفضل المراهقون في مدينة مراكش قضاء فترة العصر يوم الجمعة أو عدد الموالين لإيران في دولة الكويت وتفاوت فئاتهم العمرية ومكانتهم الاجتماعية. والسؤال الخطير الذي يطرح نفسه، هل هناك أي نوع من التعاون السري ما بين جوجل وأصدقائهم من الإسرائيليين والأمريكان؟ على العموم أذكر أن صديقاً قديماً قال لي: «من راقب الناس مات هماً».

مراجع:

Her - 2013.

Ex Machina - 2014.

ist sicher - 2014.Who Am I: Kein System

Seth Stephens-Davidowitz - Everybody Lies - Big Data, New Data, and What the Internet Can Tell Us About Who We Really Are - 2017.

الفصل الثاني والثلاثون
الأستاذ، التلميذ، النساء والرجال

شيء آخر وهو أن الفجوة بين الأستاذ والتلميذ كبيرة وغالباً ما تكون في اتساع، المعلم قرأ الدرس عشرات المرات، والتلميذ تبدو له القصة أغرب من الخيال. المعلم الجيد دائماً ما يلوم نفسه لو رسب الطالب، لأنه لم يبسط له الدرس كما يجب، كما كان يفعل قبل عدة سنين وكأن الخبرة تجلب الألم. والأستاذ يتعلم من تلاميذه أكثر مما يتعلم التلاميذ منه، لذلك ما عاد يدري هل عليه أن يشكرهم أم عليهم أن يشكروه، أم أنه كما قالت العرب: لا شكر على واجب.

ثم وكما ورد كل إنسان يرى الناس بعين طبعه، يبدو أن الرجال معقدو التفكير والنساء هن البسيطات. والسؤال المحير هو لماذا على الرجل أن يغازل المرأة ويسعى خلفها وليس العكس؟ وقد كنت أحقد على النساء نوعاً ما أو أغار بسبب هذا الشيء، ثم بدأت أتأمل وأضع نفسي مكان امرأه على قدر من الجمال. يا إلهي هناك المئات والآلاف من الرجال الذين أقابلهم كل يوم يتمنون مشاركتي في الفراش، يا إلهي لمن سأهب نفسي ويا له من صداع! وهل أمارس الجنس من أجل المال؟ لا بالطبع فذلك شيء مقزز وإن كنت في أمس الحاجة إلى المال. ماذا عن ابن جارنا الغني الذي يبدو جاداً ويرغب في الزواج، ولكني لا أطيقه، لا. ماذا عن الفتى الوسيم في النادي سأمضي معه وقتاً رائعاً، ولكنه متكبر ولا يصاحب فتاة إلا للاستعراض. ماذا عن زميلي في العمل والذي في قمة الطيبة ويقدس المرأة ويحترمها ولكن رأسه يبدو كالبطيخة؟ هل يمكنني تقبله وماذا ستقول عني الفتيات؟ وعندما تختار شخصاً ما فإنه يخونها أو يهجرها ويترك جرحاً عميقاً وحيرة أكبر وأكبر مع التقدم في العمر. وماذا لو كنت فتاة غير جميلة وأرغب في الحب والاستقرار؟ يبدو أن الوضع النفسي سيكون أسوأ والصداع أكبر، وماذا لو كنت في مجتمع مغلق؟ الوضع أسوأ وأسوأ إذ يجب

علي أن أتظاهر وأنافق حتى يأتي رجل غريب فجأة ويطرق باب بيتنا راغباً في الزواج، لقد كنت أحقد على الفتيات واليوم أنا أشفق عليهن. وقد اكتشفت مؤخراً أن هناك سبباً علمياً يفسر سعي الرجل وراء المرأة لا العكس ويسمى هذا السبب بالاستثمار الأبوي (Parental investment).

مراجع:

Tupac - Baby Please Don’t Cry.

Stephen Marley ft. Mos Def - Hey Baby.

الفصل الثالث والثلاثون
العنصرية لا تُنكَر بل تخفف

كمدخل تخيل معي رجلاً أسود البشرة ضخماً ومخيفاً ولكنه طيب القلب يحب الناس والأطفال ويساعدهم مهما نظروا إليه نظرة خوف وشك، فله بدل الأجر أجرين، حتى يصبح كالملاك من شدة طيبته. ثم تخيل رجلاً بنفس الصفات الشكلية ولكنه سيئ الطبع يكرهه الجميع والكل يكرهه حتى يصبح كالشيطان على الأرض. فالحياة عادلة للجميع لأن أساس الملك العدل وأن الله ملك الملوك هو أعدل العادلين، وأن الله حاشاه أن يجمع حزنين في الصدر، وحتى أن الله كما خلق الرجال أقوى بدنياً، فقد خلق النساء أقوى نفسياً وهكذا.

الإنسان يميل إلى قومه لعدة أسباب وهو طبع، فالعنصرية طبع في الإنسان لكي نعالجه يجب علينا أولاً أن نعترف به. ويمكن القول بأن الألمان مثقفين وفلاسفة فإذا قبلت صفة إيجابية فاقبل صفة سلبية. واليابانيون يملكون معدل ذكاء عالي في الرياضيات، والإندونيسيون متواضعون طيبو القلب، وهكذا كل عرق وشعب وكل قرية تمتلك صفات ضعف وقوة بشكل عام. ولكن المشكلة في التعميم على الكل بلا استثناء والافتراض المسبق والتعدي على شخص لا لشيء إلا لأن شخصاً آخر من نفس لونه أو دينه أساء إليك، ثم لا تنسَ أننا أخوة من كوكب واحد.

الدراسات النفسية الاجتماعية الحديثة تشر أن العنصرية ما هي إلا ظاهرة لشيء أعمق أو للتشبيه فهي كواجهة لبرنامج كمبيوتري، وأما العمق البرمجي فيتكون من أربع محاور بصفة رئيسية:

- الجمود والتصلب.

. التصرف نحو الآخرين بطريقة عدوانية وجافة ومتعالية خاصة إن كان هؤلاء الآخرون أقل منزلة أو مركزاً.

. حب القوة.

. الخضوع للأفكار والمعتقدات خضوعاً متطرفاً أو أعمى خاصة إن كان مصدر هذه الأفكار سلطة خارجية قوية من وجهة نظر الفرد (سلطة دينية أو سياسية أو تقاليد).

إن أفضل وأسهل حل لقتل العنصرية وفِي عقر دارها هي أن تأخذها بضحكة ومزحة لا جاد ولا بالحزم. أو استخدم القاعدة المعروفة بالشارع «إذا الغريب ساعدك ساعده وإن ضربك فاضربه، وأما أخوك فإن ساعدك فساعده وأحبه وإن ضربك فرد له الكف كفين». وأشد أنواع العنصرية ليست تلك التي بأرض فلسطين بل تلك التي في كل قرية وبيت، تلك التي بين الرجل والمرأة.

مراجع:

RZA - Fury in my eyes.

White Men Can’t Jump - 1992.

Mind Your Language - (1977-1979).

الفصل الرابع والثلاثون
الجهل المركب

في فلسفة العلوم الحديثة ومنذ كارل بوبر (1902-1944) يُشار أننا نقوم بصنع النظرية أولاً ثم نجمع المعطيات أو المعلومات وليس العكس، وإننا كذلك لا نستطيع جمع أي معلومة غير منحازة. أو ما يسمى في علم النفس بالانحياز التأكيدي، أو كما ورد من ادعى الحياد فقد كذب.

الجهل المركب هو ما يخاف منه المرء فالجاهل يعلم أنه جاهل فهو ليس بذاك السوء ولكن الجاهل جهلاً مركباً (ويسمى كذلك نصف متعلم) يظن أنه عالم خطير بينما هو جاهل ويرى الحقيقة من منظور ضيق. انظر عزيزي القارئ في الجدول التالي أشرح به رؤيتي ككاتب للجهل المركب:

	مثال في الفلسفة	مثال في الفقه	مثال في السياسة
جاهل	إن رغبت في شيء فستحصل عليه بالتأكيد.	الغناء، لا أعلم سمعت أنه حرام ولكني استمع إليه على أي حال.	الملك عبد الله الثاني مستقل تماماً ولا يتعامل مع الإنجليز.
جاهل مركب	إن أصدق وصف لهذه الدنيا أنها غريبة عجيبة، إن ما تتمناه صدقاً لا تمثيلاً فإنه يهرب	الغناء حرام، حرام، وقد سمعت الشيخ الفلاني يفتي بحرمته. لن أحضر أي حفل زواج فيه	إن حكام الأردن تبع للإنجليز وهم من قضى على الخلافة العثمانية وبالمستندات والأدلة. وليس لهم أي دور غير حماية إسرائيل.

	منك، وإن ما تعف عنه يأتيك سعياً.	اختلاط أو غناء وحتى لو كان حفل زواج ابني.	
متخصص (نوعاً ما)	القاعدة السابقة تحتوي على مغالطات منطقية فالنتيجة قد تسبق السبب لأنك عندما تملك شيئاً فمن الطبيعي أنك لم تعد تتمناه. وكذلك الجملة صحيحة وخاطئة في نفس الوقت، وهو ما يسمى عدم قابلية الدحض، أي أن أي شيء يستحيل تكذيبه وكذلك يستحيل برهنته فهو مجرد إضاعة للوقت.	إن أدلة تحريم الغناء ليست واضحة ولا ترقى للصحيح، وأنا أقول بأن الغناء حلال. أنا مع الغناء قلباً وقالباً.	إن السياسة يغلب عليها المدرسة الواقعية. أي أن المصلحة العامة هي التي تدير الأمور وإن تحالف الهاشميين مع الإنجليز لم يأتِ إلا بعد مرض الدولة العثمانية التي هي في الأصل ليست إلا احتلالاً تركياً واستغلالاً للإسلام أدخلنا في عصور من الظلمات. أنا مع الملكية ومع الملك عبد الله قلباً وقالباً وإن قتل ثلث الشعب وسجن ثلثه الثاني، ليأمن البقية.
مثقف	نوعاً ما عندما تتعامل مع شيء ما بصدق وثقة فإنه يميل للرضوخ إليك.	هناك خلاف بين الفقهاء في الغناء، ولكن بصفة عامة إن الله حلل الطيبات، والغناء ما	أي نعم أنه في عالم السياسة الغاية تبرر الوسيلة ولكن نحن كمسلمين وكعرب يجب علينا أن نرتقي بالأمور ولا نقلد الغرب في كل شيء. إن الملك عبد الله يقوم بعمل جيد بشكل عام.

	وإن القناعة كنز لا يفنى.	دام راقياً وجميلاً فأنا أحب سماعه.	يجب علينا أن نكون بنائين ونساعده كي لا تصبح الأمور داخلياً فوضى، وخارجياً كي يستطيع الضغط على إسرائيل، ولكي لا يحيد بعيداً عن طريق الخير والصلاح.

مرحباً بك في الشرق الأوسط فرؤية مثقف أمر نادر وأشبه بالأحلام. وطبعاً الجدول السابق نسبـي فمن أراه مثقفاً يراه غيري جاهلاً مركباً. إن الجهل المركب في غاية الخطورة فمن عنده أنانية مركبة أو عناد مركب فاحتمال أنه يعرف ذلك ولكنه غارق فيها. ولكن لا يوجد شخص واحد عنده جهل مركب ويعلم ذلك، وإلا ما صار جهلاً مركباً. وماذا عن الجهل المكعب؟

من المعروف أن الإنسان خلال حياته يغير أفكاره وينقلب على نفسه وهو شيء حميد خصوصاً لو أنه لم يصل يوماً لمرحلة العنف أو ازدراء الطرف الآخر. ثم يأتي السؤال، هل يمكن الانتقال من مرحلة الجاهل إلى المثقف دون المرور بمرحلة الجهل المركب؟ يصعب ذلك لأن الإنسان والأمم بصفة عامة وبالنظر في فلسفة هيجل (1770-1831) ينتقل من تطرف إلى التطرف النقيض وهكذا حتى يوازن من نفسه. السؤال الآخر، الإنسان عندما ينقلب على نفسه في التفكير، هل يكون ذلك مفاجئاً أم على نار هادئة؟ كِلا الاحتمالين جائز ولكنه عندما يكون التغير سريعاً ومفاجئاً فإنه غالباً يكون انتقالاً صوب الجهل المركب، فالثقافة تحتاج المثابرة والصبر والاطلاع والسنين الطوال.

هناك أمر أخر وهو سوء الفهم (Misunderstanding) المركب أو كما يقال عند العامة فلان وزوجته مربوطان (بفعل ساحر)، ويمكن قبول كلمة مربوطان مجازاً. إن سوء التفاهم المركب يصعب شرحه ولكن وللتقريب سأعود لذكر مثال من الفصل السادس عشر، تلك الفتاة التي لا تبدو جميلة للوهلة الأولى ولكنك لو تأملت فيها وجدتها جميلة وهي لا تثق بجمالها أيضاً - وهي مثال رائع لسوء التفاهم المركب- فتظن أنت أنك الوحيد الذي يرى جمالها وأنها فرصة ممتازة لتحظى بصديقة وخصوصاً أنه يبدو عليها أنها لا تثق بجمالها. ولكن المشكلة أن نصف الموظفين بالشركة يفكرون بنفس التفكير والنصف الآخر اتضح له الأمر ولكنه يظن أنه الوحيد الذي اتضح له الأمر

وأنها فهمته واحبته لفطنته. وفي الجانب الآخر الفتاة تظن أنها غير جميلة وتظن أن الكل يتقرب منها ليقضوا ليلة عابرة للاعتقاد الشائع أن الفتيات غير الجميلات سهلات المراس، بينما الكثيرون أحبوها لروحها الحلوة بالدرجة الأولى وربما فكر البعض بالارتباط بها. وحتى الرجال المحترمين منهم والمتزوجين يعاملوها بأريحية وتودد لأن روحها ملائكية بينما هي مازالت تظن أن الفتيات القبيحات يسهل الحديث معهن أو لأنها سمراء البشرة. وهكذا وكلما تودد إليها أحد زاد ضعف الثقة في نفسها وزادت جاذبية، وأصبحنا ولسبب بسيط في حلقة مفرغة قد تستمر السنين الطوال. كذلك أحياناً تشعر أن فلاناً طيب الأصل ويحبك ولكن لسبب ما يعاكسك في كل الأمور أو أن فلان الذي تحب ومهما فعلت فلا يؤمن بك، وكذلك ما جاء عن اتساع الفجوة بين الأستاذ والتلميذ. وتلك الفتاة ماذا لو أحبت شخص ما فستظن أن الرجل الذي تحب فرصة نادرة وهو يظن أن الفتاة فرصة نادرة، وسيغار عليها غيره شديدة بينما هي ستعامل الرجال بأريحية ظنناً منها مره أخرى أن القبيحات سهلات التعامل وقريبات من الرجال، وسينشأ الكثير من سوء الفهم وعلامات الاستفهام. لذلك دائماً لا تعتمد على التحليل وعامل الناس بالحسنى وحسب. أو كما جاء في قصة سنو وايت والأقزام السبع: «إن قبلة صادقة واحدة يمكنها أن تفك أي عمل سحري».

إن ما يفترضه الكاتب هو أنه لا يمكن علاج فصام الشخصية علاجاً حقيقياً من الجذور بوجود جهل مركب وتطرف، ولهذا خضت في العديد من المواضيع شرقاً وغرباً والتي قد تبدو بعيدة عن صلب الموضوع كالرأسمالية والنسبية وغيرها. ولهذا أيضاً عزيزي القارئ - ويبدو أنك لاحظت - أني خضت في العديد من الخطوط الحمراء والتابوهات مثل الدين والأسرة والسياسة والمخدرات، وأعلم أن الخوض في هذه الأمور سيسبب لي العديد من المشاكل وقد تصل للاتهام بالفسوق أو العمالة أو التكفير وتبعاته أو أني على أقل اعتبار سأخسر العديد من الأصدقاء. ولكن العلاج الإدراكي المعرفي وللأمانة العلمية لا يتم إلا بالخوض فيها، فالكثير من مصابي الفصام لديهم أوهام تتعلق بالدين والخلافة، أو اضطهاد من الأسرة والكثير منهم كذلك خاض تجربة المخدرات. وأنا لا أدّعي الصواب أو الحقيقية، ولا يدّعي ذلك أحد، ولكني أدّعي أني تتبعت المنطق والعلم في كتابتي. ولا أدّعي جمع كل المواضيع في كتابي ولا يستطيع أن يدّعي ذلك أحد، كل ما في الأمر الكتاب أن مجرد مفتاح منطقي أدّعي أنه يساعد في علاج الجهل والأوهام.

الفصل الخامس والثلاثون

إن أنت أحببت عدوك

سامح حبيبـي نفسك والأهل والصحب ومن ظلمك

سامح يقيناً وبالظن والشك

وسامحني لأني تدخلت في شأنك

من يوقف الدم، دم دجلة والفرات غيرك

دع الدمع يسري، لا تنبت الأرض بالدم بل بدمعك

سامح تسامَ اغفر تجاهل تناسَ واحلم بربك

وهل يشدو من عاداك إلا العداوة وشيئاً من قهرك

أتريد تلقين الدروس وهو يهزأ عابثاً، قل لي بربك

وما أشهرت سيفي ضحىً إلا دعوت لهم دجى، ودعوت يا قليبي بالطبع لك

عليك بحسن الظن أحسن بالبدء وبالآخرة ظنك

ما خلقك إلا لأنه واثقٌ محسن الظن بك

وما من ظالمٍ إلا عائد قبل الممات إلى القدوس الملك

سبحان من ذا الذي إن تقربت إليه ذراعاً، باعاً تقرب لك

سامح حبيبي فإني مسامحٌ وسمحت لك

يفنى الصراع وينتهي إن أنت أحببت عدوك

الفصل السادس والثلاثون
الكذب والغيبة والاعتزال

لقد أكتشفت مؤخراً أن الكل يكذب حولي حتى من كنت أعدهم أصدقاء وأخوه، يا إلهي لقد كنت في سبات عميق من طيبة القلب. إن الكذب وخصوصاً عن الأحلام والذوق وما وراء الطبيعة أي الأشياء التي لا يمكن التأكد من صحتها أو عدمه هو سبب رئيس لكثير من العقد والأمراض النفسية.

الكذاب عند أهل الأصول لا يساوي شيئاً، لا يساوي قرشاً. والكذب إن لم يكن أصل الشرور فهو أحد الكبائر لأن الكذب يقود لمزيد من الكذب لتغطية الكذبة الأولى. والصادق لا يمكنه أن يسرق أو يغش أو يقتل وأما الكذاب فكل أبواب الشر مفتوحة أمامه. وأما الغيبة فلن أشرح لك مساوئها عزيزي القارئ، ولكن صدق أو لا تصدق فإن الغيبة تقتل كل شيء جميل في الحياة.

واتفاق الناس على الكذب يعتبر مستحيل غالباً، ولكن فلسفياً يمكن ذلك، فمثلاً ماذا لو أن كل نساء العالم اتفقن أن يكذبن بشأن آلام الدورة الشهرية وتعكر المزاج، لكي يتحكمن في الرجال، ماذا لو كان النساء يعرفن كل شيء ويتسلون بنا لا غير؟ أو أن أهلك ليسوا أهلك بل خطفوك وأنت صغير وزوروا بطريقة ما أوراقك لتبدو ابنهم، وأن كل الأقارب ومعارف العائلة الأكبر منك سناً يكذبون عليك ويخفون عنك الحقيقة. وبالنسبة لمن ولد أصم أبكم، ما أدراه لعل كل الناس صُم بُكم ولكنهم يمثلون عليه. ماذا لو كنت الصادق الوحيد على الأرض. والأسوأ ماذا لو كان هناك شخص واحد صادق معك ولكنك لا تعرف من هو؟! ثم ماذا لو كنت صادقاً في كل كلامي حتى عُرفت بالصدق ثم كذبت كذبة واحدة وبالتالي صدقها الجميع، هل أصبح أكذب من الكذوب الذي لا يؤخذ بكلامه؟

لن يصير لك وحدة العقل وراحة النفس عزيزي القارئ إلا بالوحدة والاعتزال. إلى متى تهرب من نفسك؟ نحن في عصر أدمن الناس فيه على الإعلام والإنترنت والتصوير. وأصبحوا لا ينعمون ولا بلحظة واحدة من الاسترخاء والسكينة وأصبحوا وكأنهم يعيشون في غربة عن البيئة والمجتمع وعن أنفسهم، أحياء ولكن أموات. المشكلة أننا في عصر بدايات التقنية وهي ما زالت دخيلة علينا وعندما يكون الشيء جديداً فإن سلبياته ستظهر كالإدمان على الإنترنت ولكن في المستقبل ستكون التقنية مدمجة مع حياتنا وأكثر اجتماعية.

العالِم وليم اوجبرن (William Ogburn) في نظرية التغير الاجتماعي افترض أن التكنولوجيا تتغير أولاً ثم القيم والثقافة والمبادئ تتغير بعد ذلك. وأنه هناك دائما نوع من الفجوة أو الهوة تسمى بالهوة الثقافية وتنشأ لأن التغير التكنولوجي يكون سريعاً بينما القيم والثقافة تغيرها بطيء نسبياً. فالتقدم التكنولوجي قد تبطئه العادات والتقاليد، والتكنولوجيا قد تسبب تسارعاً في تغير العادات والتقاليد، والتسارع في تغير العادات والتقاليد يُكون خللاً اجتماعياً.

إن الإدمان على الإنترنت بشكل عام، وعلى المواقع الإباحية بشكل خاص يعد من أخطر وأسوأ أنواع الإدمان ومن أكثرها انتشاراً. اجلس ساعة يومياً بدون فعل أي شيء، أغلق التلفاز والجوال وتأمل. في البدء ستكون ثقيلة ثم ستتعود. واجعل لك نشاطاً استرخائياً سواء سباحة، يوجا، عزف بيانو، رسم، قراءة وكتابة، خط، صيد، وغيره.

مراجع:

Gang Starr - Moment of Truth.

Gary Wilson - Your Brain on Porn: Internet Pornography and the Emerging Science of Addiction - 2015.

الفصل السابع والثلاثون
معضلة المَلِك

إن الإنسان وبطبعه يحب أن يرى ويجرب كل النقائض لتتضح له الصورة الكلية الحقيقية للكون - من المستحيل أن يصل للصورة الكاملة فالله وحده يراها لكن الإنسان يسعى - وأنه يحب أن يستكشف العالم ويسير خطوات للشرق وخطوات أخرى للغرب، ولكنه يخاف إذا ابتعد شرقاً كثيراً أن يضل الطريق فلا يستطيع الرجوع للغرب، والعكس. فمثلاً إن ما يمنع الإنسان من تجربة الجرائم والآثام هو الازدراء المجتمعي والنفسي بحيث إنه سيصعب عليه أن يجرب كيف يكون طاهراً محباً بعد ما يرتكب القتل أو الارتشاء على سبيل المثال، بل ستجره لدوامة اجتماعية/نفسية من اللاأخلاق والظلم والنفاق وربما السجن أيضاً (كأن الدوامة تمثل الجحيم)، بينما لو كان مصلحاً طاهراً فسيظل عنده الاختيار والحرية أن يكون مجرماً في يوم من الأيام (والحرية بحد ذاتها تمثل الجنة). مثال آخر، شخص مولود في أسرة متوسطة وعاش ميسوراً فسيكون في سعي دائم أن يعرف ويستكشف - غالباً في عقله الباطن أو اللاشعور - كيف سيعامله الآخرون في حالة الغنى الفاحش وكذلك الفقر المعدم وكيف هو شعور وحياة الغني وكذلك الفقير. ولكنه لن يترك وظيفته وكل أمواله ويتصدق بها لأن ذلك قد يجره لدوامة من الفقر ربما لن يخرج منها طوال عمره. بل سيسعى لزيادة أمواله لكي يجرب حياة الغنى وليكون عنده الحرية في أي وقت لأن يترك أمواله ويجرب حياة الفقر. ولأنه لو كان فقيراً ورأى من هو أفقر منه فسيكون ليس فقيراً مقارنه بالرجل الأفقر منه الذي رأه وسيحب أن يجرب الفقر الأشد، وهذا تمنٍّ للموت في آخر الأمر.

إن الإنسان كما يحب معرفة العدل فإنه يحب أن يرى كيف يكون الظلم. ومعرفة العدل بسيطة وممدوحة ولكن معرفة الظلم فريدة نوعاً ما عن باقي الصفات ومعقدة. أمامك خيارين لا

ثالث لهما إما أن تَظلم الناس أو أن تترك الناس يظلمونك. الخيار الأول قد يبدو أسهل وأسرع ولكنه نوع من الغش والتحايل على النظرية المذكورة، وهو في الأخير لن يفيد لأنك لن تعرف معنى الظلم الحقيقي كما أنك لن تعرف معنى الفقر حتى تفتقر لا أن تُفقر الناس، ولن تعرف معنى الوحدة حتى تعيش منعزلاً فلن تعرف معنى الظلم حتى تُظلم (بضم التاء). والمراد ليس أن تتعمد أن تجعل الآخرين يظلمونك ولكن أن لا تظلم أحداً، وتترك مسألة أن يظلمك أحد للزمن، فإنك لا محالة ستُظلم عاجلاً أو آجلاً - وعندئذ لن يضرك من ظلمك بذاك القدر، لأنه سيساعدك إدراكياً ونفسياً نوعاً ما - وأن الخيار الأول هو الشائع وأن الخيار الثاني هو النادر، ولن تجده إلا عند بعض العرب الكرام والمسيحيين الحقيقيين وفي عوائل قليلة حول العالم. إن أكثر ما يضايق أصحاب الخيار الثاني هو غباء الظلمة وبرودة أعصابهم وسوء طالعهم وأنه وكما ذكر فإن رؤية النار أحيانا أشد عذابا من الدخول فيها، وما عدا ذلك فإنهم بركة الأرض ونورها وعلماؤها وعباقرتها وعطرها الزاكي، عرفهم من عرفهم وجهلهم من جهلهم.

إن الفقير المغمور يعرف طعم الفقر ولكنه يحلم أن يجرب طعم الغنى وأن حلمه جميل ومشروع، ولكن الملك ابن الملوك يحلم أن يتجول يوماً في الشارع مسفراً عن وجهه دون أن يلفت الانتباه، وسيحب أن يعرف كيف سيعامله الناس لو كان معدماً فقيراً ومن سيبقى من الأصدقاء معه، وأن حلمه الأول مستحيل وحلمه الثاني مذموم لأن فيه ضياع المـُلك والهلاك للكل. وأنه في حالة المـَلك فإنه قد لا يعرف بعض الأساسيات الاجتماعية البسيطة كتكوين وفقدان الأصدقاء وتجربة العزلة عن الناس أو عدم الإكثار بشيء والفقر والحاجة وغير ذلك. ولذلك فإن عدداً من قواعد علم النفس والعلوم الاجتماعية لا تنطبق عليه، حتى أن بعض المغالطات النفسية المنطقية كالاعتقاد أن المجتمع يدور حوله، أو الاعتقاد أن جهة ما تحاول مراقبته واجبة الوجود عنده وانعدامها يصبح مغالطة نفسية. وإن المـُلك هو أقسى ما في الحياة، وأن المـَلك عليه أن يتعاطف مع كل الناس وفي كل الوقت ويتحمل مسؤوليتهم ولكنه لا يجد من يتعاطف معه، بل ويحسده الجميع على شيء مُرهق وجلل. وأن المـَلك (البعيد عن الظلم) يضحي بنفسه وبحياته تماماً فهو حقيقةً لا مجاملةً أجمل ما في الحياة وتاجها وعطرها الزاكي وبسمتها.

والمهدي المنتظر كما في مثال الملك فهو لا يعرف كيف تكون الحياة العادية ولكنه أحياناً يتمناها. وأن معضلة الملك المذكورة تنطبق على كل فرد في المجتمع وعلى صعيد كافة المجالات ولكن بشكل أخف وأبسط غالباً، لأنه كما ورد من وُلد وعاش غنياً لا يعرف جزءاً كبيراً من العالم

وهو بذلك لا يعرف العديد من الأساسيات الإنسانية الاجتماعية البسيطة، والعكس صحيح. وأنت عزيزي القارئ غالباً لا تعرف حياة وإحساس تاجر المخدرات، كما أنك لا تعرف كيف هي حياة الرجل الياباني ولا حتى المرأة النرويجية. كما أن اليتيم الذي فقد أباه مبكراً هو إنسان مختلف عن الأغلبية تماماً فهو لا يعرف معنى الرعاية الأبوية والتقدير والعطف الأبوي وغيره. ولكن قد يتبناه عمه أو خاله أو غيرهم فيصبح عنده فهم جزئي. ولكن المشكلة الأبعد من ذلك، من كان عنده أب سايكوباث، بلا ذرة إحساس أو منطق أو بشرية فسيكون الابن عنده أباً جسدياً ولكن لا يعرف معنى الأبوة، فسيعيش مختلفاً فكرياً ونفسياً عن بقية المجتمع وبشكل كبير. والأغرب هو السيد المسيح الذي وُلد بأم بلا أب، فهو مختلف تماماً عنا، وكأنما كان يعيش في عالم وبعد آخر تماماً مما سبب له طفرة اجتماعية بأن يكون بلا خطأ أو حقد أو خطيئة، ففسر اليهود ذلك بالدجل والاستعانة بالشيطان وعذبوه على ذلك وهو يصبر، بينما المسيحيون أتباعه قالوا إن الله اتخذه ولداً، والمسلمون قالوا كلاماً قريباً، كلمة الله وروحه ونبيه.

إذاً قواعد علم النفس ليست إلا تجارب أو منظور شخصي ولكنها إن كانت شائعة في الناس وبدرجة كبيرة أصبحت بما يسمى نظرية. ولكن في الحقيقة أن النفوس والتفكير، أو جزء منه على الأقل، يختلف من شخص لآخر اختلافاً شاسعاً كأنك في عوالم مختلفة. وذلك لاختلاف الظروف أو ما يسمى بالتجارب الشخصية وبأخذ نظرية تأثير الفراشة في الاعتبار. ولكن السلوك بين الناس يتشابه نوعاً ما، لأن المجتمعات تنبذ المختلف دائماً فيحاول كل شخص التمثيل والنفاق والتطبع (لاشعورياً غالباً) من خبرته من التجارب السابقة ليبدو كالغالبية. وأنك عندما تضع نفسك مكان شخص ما وإن كان أحياناً له جانب أخلاقي تعاطفي ولكنه غالباً ما يكون وهم وبعيد كل البعد عن الحقيقة. وأنك أيضاً عندما تحاول أن تقرأ نفسية شخص ما، كأن تقرأ هل الشخص يَخدعك أم يَصدُقك أو أن تعرف كيف هو شعور المظلوم من قراءتك له، فإن قراءتك تكون غالباً بعيدة عن الحقيقة. وإن الطاهرين المتصوفة لهم سيئة بأنهم يتفكرون أحياناً كيف تكون حياة الشر، والأشرار المنغمسون جعل الله لهم حسنة أنهم يتفكرون أحياناً كيف تكون هي حياة الخير. وأن مشكلة الأشرار الرئيسية أنهم يئسوا - بدل أن يحاولوا ولو بالقليل - أن يعودوا ليكونوا ذوي نفوس طاهرة وأن يتقبلهم الناس.

ثم لندرس نفسيات الأبطال الخارقين (Superheroes) لتوضيح الصورة أكثر. في فيلم هانكوك (Hancock) يظهر البطل الخارق مكتئباً، متشرداً، غير مكترث أو مبالٍ. وهي رؤية قد

تكون منطقية لأنه وبكل بساطة يستطيع الحصول على أي شيء فما عاد أي شيء يستهويه، كما أنه وحيد لأن لا أحد يشبهه على الكوكب ولأنه أصبح منبوذاً اجتماعياً بسبب سلوكه غير المألوف. مثال آخر ولنفترض أني أرى كل شيء، سواء ماذا يعني هذا الشيء وهل أنت تكذب علي أم تقول الصدق وهل تشعر بالملل أم السعادة هذه اللحظة، وهكذا. لو جلست معي فلن أفكر في ماذا يجري من حولي لأن ذلك واضح ومعلوم تماماً ولكني سأكون في بعد آخر لا تستطيع استيعابه، ربما أني أعيش الماضي بذكرياته أو أني أقرأ المستقبل أو أتفكر في كون موازٍ. وبالتالي سيصبح لديّ خلل في السلوك الاجتماعي بحيث قد أفرح في موقف يصح به الحزن أو العكس. وسأبدو للناس غريب الأطوار ثم سأميل للوحدة والفصام والاكتئاب وهو ما يمثل القناع الذي يضعه الأبطال الخارقون، إلا لحبيبتي أو صديقي أو معلمي فهم قد يعرفون حقيقتي. ولكن وعلى أرض الواقع فإن الإنسان ومن خلال التجربة عادةً ما يتكيف وينافق اجتماعياً ليبدو طبيعياً سلوكياً. وكذلك فإننا نميل لفهم سلوك الشخص المقابل حسب منظورنا وفكرنا الشخصي، وهذا ما يؤكد أن النفوس والرؤى قد تكون غاية في البعد ولكن السلوك الاجتماعي يميل للتشابه والتقارب. وإن كانت النفسية والإدراك والسلوك تؤثر بعضها على بعض فإن السلوكيات معدودة بينما هناك عدد لامتناهٍ من الخبرات والأفكار.

إذاً كملخص، الإنسان يحب أن يتجه شرقاً وغرباً ويخاف أن يبتعد في أحد الاتجاهين فيضل الطريق ولا يتمكن من الرجوع، ولكن وبسبب الظروف الاجتماعية غالباً وكما في مثال الملك والأبطال الخارقين يكون عند الإنسان تطرف شرقي أو غربـي في أجزاء من شخصيته بحيث إنه من يعيش تطرفاً بالفقر مثلاً فإنه لن يعرف طعم الغنى وبالتالي يصبح عنده قصور وعمى إنساني نفساني اجتماعي في جانب من جوانب الحياة. وبسبب هذا القصور يصبح التفكير الإنساني والنفسي بعيد كل البعد بين الناس وإن تشابه السلوك. وبالتالي فإن نظريات علم النفس تحترم ولكن لا تعمم. ليس هذا وحسب بل إن الناس يعيشون في عوالم مختلفة، على سبيل المثال من تعرضوا للاعتداء الجنسي في الطفولة يعرفون بعضهم بعضاً - شعورياً أو لاشعورياً - ولهم لغة خاصة ورموز وتصانيف وألغاز وغيرها، وإن داخل هذا العالم عوالم مختلفة كمن نقل الاعتداء الجنسي عندما كبر أو أصبح مثلي الجنسية والصبـي عن البنت وغيرها. بينما من لم يتعرض لهذا الشيء فإنه لا يعرف هذا العالم وإن عرفه فيعرفه من منظور وبعد وعالم آخر. وأيضاً متعاطو المخدرات يعيشون في عالم موازٍ آخر، ليس هذا وحسب بل حتى من يقرأ ممن لا يقرأ كذلك الأيتام لهم عالم خاص والعزاب لهم عالم خاص والقتلة لهم عالم خاص، وأهالي المقتولين لهم عالم خاص والنساء من

كوكب والرجال من كوكب، وأن هذه العوالم قد تتقاطع وقد تتنافر، وكذلك الذين يلعبون الشطرنج لهم عالم خاص وحتى في أتفه الأشياء وهكذا.

إضافة: يجب ألا ننسى أصحاب الاحتياجات الخاصة فهم لهم أيضاً أسلوب حياة مختلف، من ولد أعمى مثلاً يعيش في كون آخر من الرؤية والأفكار، وعادة ما يكون ذهنه أصفى وتحليله للعالم أدق لقلة المدخلات والمشوشات عليه مقارنة بالبصير (لا تنظر إلى الأعمى كناقص بل انظر إليه كبطل خارق). وكذلك من أصيب بحادث وما عاد يتمكن من الحركة، ستكون في البداية صدمة مقلقة وموجعة، ثم سترتقي روحة مع قليل من الإيمان والصبر إلى أن يصير داخلياً أشبه بالملاك. لقد كنت أعجب من أصحاب الاحتياجات الخاصة عندما يشاركون في رياضات تنافسية وما الداعي لذلك، حتى شاهدت مرة مباراة كرة سلة للمقعدين، فإذا هي أجمل مباراة أشهدها في حياتي.

مراجع:

Brother Ali - Us.

Eagles - Hotel California.

See No Evil, Hear No Evil - 1989.

John Gray - Men Are from Mars, Women Are from Venus - 1992.

الفصل الثامن والثلاثون
سهولة خداع العقل

نظرية القطيع هي حقيقة وواقع نعيشه فكلنا نتبع القطيع، كلنا نتبع القطيع إيماناً أو حتى نفاقاً. والعقل يرتاح عندما لا يكون منفرداً، والنفس ترتاح مع الجماعة ومساكين هم الفلاسفة الرائدون، وأي مساكين. والزن على الأذن أَمَرُ من السحر كما قيل في المثل، وبالفعل عندما ترى أهلك يفعلون شيئاً وفِي المدرسة نفس الشيء وأغلب المجتمع يقوم بنفس الشيء فستؤمن به حتى لو كان جوهره خاطئ وسخيف.

مجموعة من العلماء وضعوا خمسة قرود في قفص، وفي وسط القفص سلم وفي أعلى السلم بعضاً من الموز. وكلما حاول أحد القرود الصعود لأخذ الموز رُش جميع القرود بالماء شديد البرودة. بعد فترة صار أي قرد يحاول الصعود لأخذ الموز يمنع ويضرب من قِبل بقية القرود، حتى لم يعد يجرؤ أي قرد على صعود السلم.

بعدها قام العلماء بتبديل أحد القرود الخمسة ووضعوا مكانه قرداً جديداً، فأول ما قام به القرد الجديد هو محاولة صعود السلم لأخذ الموز ولكن الأربعة قرود الآخرين ضربوه وأجبروه على النزول، بعد عدة مرات من الضرب فهم القرد الجديد بأن عليه أن لا يصعد السلم مع أنه لا يدري ما السبب.

مرة أخرى قام العلماء بتبديل أحد القرود القدامى بقرد جديد وحل به ما حل بالقرد البديل الأول حتى أن القرد البديل الأول شارك زملاءه بالضرب وهو لا يفقه لمَ الضرب. وهكذا، حتى تم

تبديل كل القرود الخمسة بقرود جديدة وصار في القفص خمسة قرود لم يتعرضوا للرش بالماء البارد أبداً ومع ذلك ظلوا يقفون في وجه كل من يحاول صعود السلم بدون أن يعرفوا السبب.

حركة واحدة أو موقف سيؤثر في حياتك سنين، حركة كاذبة أو دمعة خادعة تجعلك تؤمن بشخص لعشرات السنين وهو يعاديك. الذاكرة التي تعتمد عليها قد تكون مخطئة، كما جاء في دراسات علميه أنه حتى ما أنت متأكد وأنه حدث لك قد لا يكون حقيقة بل خدعة من العقل، وأن الذكريات قد لا تكون حقيقية بل معدلة أو باطلة أو مزروعة وأنك قد تعترف بجريمة ارتكبتها وأنت صادق داخلياً ومعتقد بقولك ولكن في الحقيقة أنت لم ترتكبها. ويبدو أن أكبر خطأ ترتكبه هو وكما ورد أن تثق ثقة عمياء في عقلك وفِي ذكرياتك أو أن تعتقد أن ما تراه هو الصورة الحقيقية الكاملة.

ورد في فيلم البريستيج (The Prestige): إن كل خدعة سحرية تتكون من ثلاثة أجزاء أو أفعال. الأول يُسمى الضمان أو الطمأنة، يقوم الساحر بعرض شيء اعتيادي كأوراق كوتشينة أو حمامة أو رجل ما. يدعك في الغالب تتفحص ذلك الشيء للتأكد من أنه حقيقي وطبيعي وليس معدلاً (ولكنه في الحقيقة ليس كذلك). الجزء الثاني يسمى التحويل، يقوم الساحر بجعل الشيء الذي يبدو طبيعياً بفعل شيء فوق طبيعي، وفي هذه الحالة تبحث عن السر وتنظر ولكن لا تجده، لأنك في الحقيقة لا تنظر. وتحب اللحظة التي خدعت بها ولكنك لم تصفق بعد لأن إخفاء شيء ليس بكافٍ بل يجب إرجاع ذلك الشيء. لذلك فإن كل حيلة سحرية تتكون من ثلاثة أجزاء، والجزء الأصعب والأخير يسمى البريستيج.

مراجع:

The Illusionist - 2006.

Brain Games - (2011-2016).

Trick of The mind - (2004-2006).

الفصل التاسع والثلاثون
جدلية القوة والأخلاق

من آراء أوغست كونت (Auguste Comte) الفلسفية أن علم الأخلاق يقوم على مبدأ الحياة من أجل الآخرين، ولهذا المبدأ وجهان: أحدهما اجتماعي، أي أن المجتمع سيصِح إذا ساد الحب والتعاون والاحترام. والآخر فردي، أي أن المجتمع نعمة وأن ما يستعمله الفرد هو ثمرة الأجيال الإنسانية وهو كله دين عليه، لهذا ينبغي أن يكون الحب قاعدة للحياة.

الطيبة والاهتمام بالآخرين سنة كونية وطبيعة بشرية لا تكلف، وإذا فقدت عقلك يوماً ما فلا تفقد قلبك وإذا فقدت قلبك فلا تفقد عقلك. وكما جاء على لسان سقراط: «الفضيلة هي المعرفة والرذيلة هي الجهل»، فالأشرار هم مجرد أناس مغفلون ضيقو المعرفة ـ ولو كانوا أساتذة جامعات ـ ولو فقهوا أن الفعل السيئ سيقود للخسارة لما تجرأوا على فعل الشر.

أي نعم إن الإنسان لديه الرغبة في التأثير على الآخرين والتغير من اتجاهاتهم وقيمهم وسلوكهم وهو ما يعبر عنه باسم الحاجة للقوة. فالطفل الذي يهاجم طفلاً آخر، والأب الذي يطلب من ابنه المراهق أن يعدل طريقة تصفيف شعره، والمدير الذي يرمق أحد موظفيه باستصغار عندما يتأخر عن العمل. ولكن لدافع القوة المذكور وجه آخر، فليس شرطاً أن تكون القوة قوة تسلطية ويكون هدفها الرئيسي الوصول إلى غاية شخصية من خلال المنافسة والتحدي وفرض التأثير على الآخرين بالقسر. بل هناك القوة المروَضَة من أجل الصالح الاجتماعي والتي تدفع الفرد لإظهار الاهتمام بالآخرين وبأهدافهم مع تقديم العون والتشجيع والدعم لهم كالانخراط في الحركات الطلابية والنقابات العمالية والأندية الرياضية والمؤسسات الاجتماعية وما شابه.

نظرياً فيزيائياً وبالتغاضي عن فيزياء الكم الدقيقة فإنك لو عرفت كل قوانين الطبيعة من الكتلة والأبعاد والجاذبية والقوة والسرعة ومقاومة الهواء وسرعته واتجاهه وتسارعه.... إلخ، يمكن التنبؤ بكل الأحداث في الكون حتى يمكن معرفة نتيجة رمي النرد مسبقاً. ولكن على أرض الواقع فإن ذلك مستحيل، ليس لكثرة المدخلات فقط بل لأن أي تغير تافه وفي غاية الصغر والدقة في أي مدخل من المدخلات سيؤدي إلى اختلافات هائلة عظيمة كما ورد عن نظرية تأثير الفراشة.

أي نعم وأنه وحسب اقتراحات علم النفس الأخيرة وكما ورد في الفصل السابق أنه يمكن خداع الانسان بسهولة وأن جزءاً كبيراً من اتخاذك للقرار مبني على أمور نفسية وليست منطقية مثل الإطار والمرساة وغيرها، ولكن هذا لا يعني سهولة التحكم بالآخرين بل وربما استحالته على المدى الطويل. لأن نظرية تأثير الفراشة قد أصابت التلاعب النفسي - بغية الحصول على هدف ما - إصابة بليغة وقطعت أطرافه وأن نظرية الكم قد أصابته في مقتل تماماً. كم رأيت من أناس خططوا لشخص معين ولكن فاتهم شيء صغير فانقلبت كل خططهم عليهم (إن الأشرار لا يستطيعون التحكم بأحد ولكن خذ حذرك عزيزي القارئ فقد يستطيعون أن يفرقوا بين الطيبين فيصفو لهم الجو، سواء بشكل مقصود وخاص ومباشر، وكذلك بالإزعاج وبشكل موسع وعام).

لاحظ عزيزي القارئ أن هناك فرقاً بين الخداع والتحكم، الخداع أو التشويش أو الوهم أو الهلوسة بكلمة أخرى أي نعم سهل بدرجة كبيرة ولكن استخدام هذا الخداع للتحكم أو الاقتياد (أو البريستيج كما ورد في الفصل السابق) حسب الهوى هو عملية غاية في الصعوبة والتعقيد. وأن هناك طريقة أسهل وأكثر فاعلية بكثير للتحكم والاقتياد وهي الحب وقول الحق والمنطق والتعاطف والمصادقة وما عليه من حسن التعامل.

ثم إن هذه الأمور كالتلاعب النفسي يكون مكانها السوق وليست بين الأهل والأصدقاء. كم أكره الأشخاص الذين يجربون التلاعب النفسي علي بل وحتى في السوق فإن التلاعب النفسي يكون على منتج جيد وبسعر معقول بغية زيادة المبيعات أما في حالة المنتج السيئ فإنه وإن نجح استخدام الحيل النفسية فإنه نجاح مؤقت. إن الكاتب على يقين أن النظريات التي تَذكر إمكانية خداع العقل بغية الحصول على نتائج معينة سيأتي يوم وتفند وترفض وتبقى في مكانها الصحيح في السيرك وعلى القرود وفئران التجارب وبين السحرة وأصحاب الخداع البصري.

إن ما تزرعه ستحصده، إن زرعت العلم وجدت العلم وإن زرعت الفتنة ستفتن، وإن زرعت الصدق وجدت الصدق. إن القوة والتأثير في المحبة والثواب وليس في الضغط والعقاب، وإن نصرتك لغيرك هي نصرة لنفسك. والطيبة سواء على المستوى المصغر الشخصي وحتى على المستوى السياسي الكبير ستقود للنصر وأما تعقيدات الشر وإن بدت نصراً فهو نصر مؤقت ولكنها ستقود للخيبة والهزيمة، وما يصح إلا الصحيح وإن طال الزمان.

إن دعوتي ككاتب للطيبة فهو بمعناها البسيط والتي هي عكس اللؤم والخبث، ولكن لابد على الإنسان من السعي وأن الصراع جزء من الطبيعة. المشكلة أيضاً في أناس زائدي الطيبة يحاولون إرضاء الجميع وعندهم إدمان على إصلاح الآخرين، هؤلاء يخدعون أنفسهم وتجدهم من الداخل يريدون من الآخرين أن يفعلوا نفس الشيء لهم كنوع من المقايضة أو رد الجميل ويطمعون في المدح بأن يقال أن فلان أخلاق أو ما شابه ويريدون أن يشعروا الآخرين بتأنيب الضمير. وهم يكذبون على أنفسهم فتجدهم يقومون بأعمال الآخرين وهم يكرهونهم ويتنازل الشخص عن التحدث مع فتاة تبادله نظرات الإعجاب خوف من الإحراج أو تكدير الجو العام وفي داخل نفسه هو على استعداد يبيع الدنيا مقابل قُبلة من تلك الفتاه. أي نعم مازلت أؤكد أن ظلم الآخرين لا داعي له وأن الدنيا لا تستحق أن تظلم أخاك ولكن لا تنسى أن لك نفساً ومن الخطأ أن تعدل مع الكل وتجاملهم وتنسى نفسك التي بين جنبيك. وأنا ككاتب عانيت من الطيبة الزائدة كما أشرت في صفحات سابقة، ولكني أصبحت أحاول أن أكون عدلاً وسطا.

لقد كنت دائماً ككاتب أهرب من المادية والواقعية وأتمنى أن تصل بي المثالية لبَر الأمان ولكني كلما نظرت في من حولي وكلما قرأت في مجال السياسة وعلم الاجتماع والحيوان والأحياء والطبيعة أيقنت أن المنفعة هي ما تحركنا. إن المذهب النفعي ينص وبكل صراحة أن أفضل سلوك أو تصرف هو السلوك الذي يحقق الزيادة القصوى في المنفعة. والمنفعة هي أي شيء ينتج عنه فائدة، ميزة، متعة، خير أو سعادة. أي أن ما هو مفيد ونافع للشخص هو الخير والصواب بعينه. ولكن الناس لو عقلوا لوجدوا أن المنفعة الكبرى في إعمار الأرض ومساعدة الغير والأخلاق، وذلك تمام المثالية. والقول بأن الغاية تبرر الوسيلة هو قولٌ قبيح لأن التخطيط الزائد البعيد كما ورد ليس بمضمون النتائج، ولكن الكلمة الجميلة والابتسامة والنية الطيبة لا محال ستنفع. {**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**}.

مراجع:

The Black Eyed Peas - Where is The Love.

Frans de Waal - The Surprising Science of Alpha Males (TED).

Dr. Robert Glover - No More Mr. Nice Guy: A Proven Plan for Getting What You Want in Love, Sex, and Life - 2003.

الفصل الأربعون

الحب جنون

هناك مذهب يسمى بالعبثية (Absurdism) وينص على أن الإنسان ومهما حاول جاهداً أن يفهم بواطن الأمور ومعنى الحياة فإن محاولاته ستبوء بالفشل وفيه كلام طويل، والمراد به هنا أن هناك أموراً وأسئلة لا يمكن الإجابة عنها. إن من المستحيل أن تفهم نفسيات الناس لأنه وببساطة كلُ يرى الناس بعين طبعة. كذلك عندما تختبر صديقك فأنت لا تدري هل نجح/رسب في الاختبار لأن اختبارك مرّ عليه أم أنه عرف أنه اختبار ومثّل عليك. وهل من أراقبه يعلم ويراقبني من مستوى أعلى؟ والكلام يجلبنا للسؤال الأصعب، ماذا يعرف عني فلان مسبقاً؟ وماذا يغيب عنه؟ يستحيل معرفة ذلك إلا بالتجربة. والتجربة لا تفيد لأن الناس قد يعرفون أنك تريد أن تعرف ماذا يعرفون عنك. وكأنك يا أبو زيد ما غزيت، وكأنها عتبة مقدسة لا يستطيع تجاوزها أحد.

أمامك طريقتان لكي تجيب عن السؤال السابق وكلتا الطريقتين خاطئتان تماماً ومجنونتان. الطريقة الأولى أنه لا أحد يعرفني مسبقاً ولا أحد يعرف عني أي شيء تماماً ومن رآني أمس أفعل ذلك فمن المؤكد أنه نسي. والطريقة الثانية هي أن تعتقد أنك كتاب مفتوح وأن الكل يعرفون عنك كل شيء تماماً حتى لو تظاهروا بعكس ذلك. وكأنك في لعبة شطرنج لا تدرى هل خصمك قام بهذه الحركة لأن خطتك مرّت عليه أم أنه فهم خطتك ويقوم بخداعك بخطة أشمل، ولو كانت عندك خطة داخل خطة لا تدري لعل خصمك عنده ثلاث خطط داخل بعض. فمن الاحترافية أن تفترض دائماً أنه يرى خطتك وليس بغافل عنها. كلتا الطريقتين مؤكد خطأهما وتطرفهما ولكن ستتشعرانك براحة البال والحرية وكذلك بالتسلية في بعض الأحيان، وهما تقريباً الحلان الوحيدان دون صداع وتحليل والتفكير الزائد المركب غير المجدي للسؤال الأصعب، ماذا يعرف عني فلان مسبقاً؟

كذلك فإن السلفية الكلاسيكية مذهب معترف به ومحترم، فكما ورد عن المذهب العبثي إن الإنسان ومهما حاول جاهداً أن يفهم بواطن الأمور ومعنى الحياة فإن محاولاته ستبوء للفشل. إن هناك أموراً وأسئلة لا يمكن الإجابة عنها، وإحدى أهم نتائج المذهب العبثي هي أن تكون سلفياً. ولكن لا تقسُ على الناس ودعهم يتفكرون ويتفلسفون وتقبلهم وناقشهم واشرح لهم واحتضنهم وأبسط جناحك لهم، وكن معول بناء لا معول هدم، وكن لطيفاً بحراً مع الناس وحتى مع نفسك. إن الله بعثنا دعاة لا قضاة وإن الكتاب الذي قرأت يمكن أن يُختصر في جملة واحدة، لو تفكرت بها وتأملت عزيزي القارئ فستدهش، من كلام مَنْ أوتي جوامع الكلم: «إذا قامت الساعةُ وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها»، رواه أحمد وغيره بإسنادٍ صحيح.

إن الخطأ والصواب وبشكلٍ عام نسبيان، وإن الواقع يظل هو الممثل الرئيس للصواب، والواقع يمثله الكل، والكل المراد به ليس المجتمع أو البشر بل الصورة الكاملة أي كل شيء. وكلٌّ منا لديه اختلاف عن الكل، إذاً كلٌّ منا لديه انفصال عن الواقع، والانفصال عن الواقع جنون، كل منا إذاً مجنون، الكل إذاً مجنون، لا أحد إذاً مجنون، الكل على صواب. ألم تسمع ذلك الصوت الذي ناداك من بعيد: «أحب الجميع ولكن لا تثق بأحد».

مراجع:

Amy Winehouse ft. Mos Def - Love is a Losing Game.